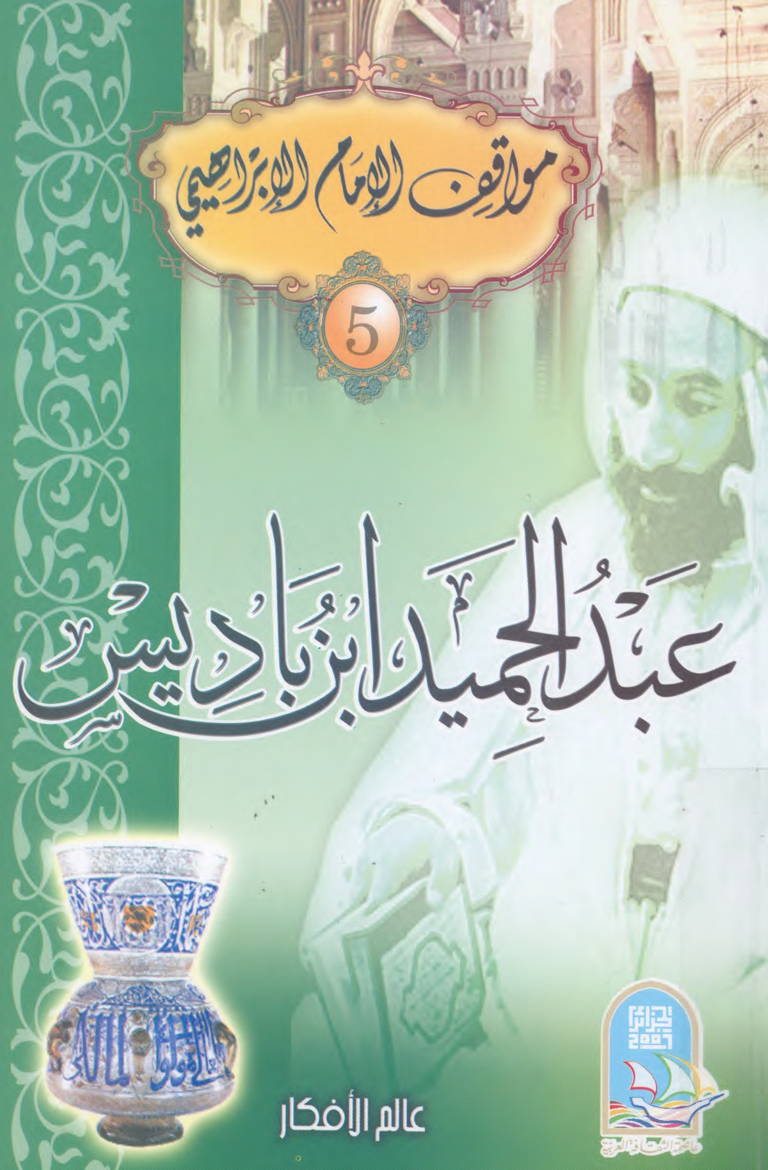

مواقف الإمام الإبراهيمي
5
عبد الحميد ابن باديس
عالم الأفكار

مواقف الإمام الإبراهيمي

عبد الحميد بن باديس

مواقف الإمام الإبراهيمي

(5)

عبد الحميد بن باديس

إعداد وتقديم الدكتور محمّد درّاجي

عالم الأفكار

مؤسسة عالم الأفكار للطباعة والنشر والتوزيع

حي باحة رقم: 89 الليدو المحمدية

تصفيف ومعالجة النص: ياسين أصنـام

الطبعة الأولى

2007

إيداع قانوني: 2007 / 4490

ردمك: 5 40 712 9961 978


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــــة

بقلم الدكتور / محمّد درّاجي

ابن باديس والإبراهيمي
رجلان جمعهما الحب في الله والجهاد في سبيله

تعارف فتآلف

بالرغم من أنهما ولدا في سنة واحدة (1889)، فهما لدّتان، وبالرغم من أنَّهما من جهة واحدة (الشرق الجزائري)، فهما بلديان، ورغم النبوغ الملكّر، عند كليهما، ورغم شهرة عائلتيهما، إذ كلاهُما سليل عائلة علم ومجد وشرف، فإن الأقدار الإلهية لم تجمع بينهُما في الجزائر، ولم يلتقيا فيها، ولم يتعارفا فيها، وإنّما قدر لهما أن يلتقيا ويتعارفا في أطهر أرض، في مدينة رسول الله ﷺ، طيبة الطيّبة، التي كان هاجر إليها الشيخ الإبراهيمي للاستقرار هُناك، سنة 1911م، وأمَّها الشيخ ابن باديس سنة 1913 للحج.

وكان في هذا الاختيار الإلهي لمكان اللّقاء، إشارة إلى الغرض من اللّقاء، والهدف من التعارف، فالمدينة هي أرض الإسلام، وموطن الإيمان، وإليها -كما قال رسول الله ﷺ-: « يأرِزُ الإيمانُ، كما تأرز الحية إلى جُحرها »[1]، وهي كما قال رسول الله ﷺ: «ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد »[2].

---

(1) رواه البخاري ومُسلم

(2) رواه البخاري ومُسلم واللفظ له.

ويحدثنا الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي عن ذلك اللّقاء المبارك فيقول: «كان من تدابير الأقدار الإلهية، ومن مخبآت الغيوب أن يرد عليَّ بعد استقراري في المدينة المنوّرة سنة وبضعة أشهر، أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك، الشيخ عبد الحميد بن باديس، أعلم علماء الشمال الأفريقي، ولا آغالي، وباني النّهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر،

كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة في كل ليلة في المسجد النّبوي ونخرج إلى منزلي، فنسمر مع الشيخ ابن باديس، منفردين إلى آخر الليل، حين يفتح المسجد فندخل مع أوّل داخل، لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية، إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها بالمدينة المنوّرة.

كانت هذه الأسمار المتواصلة كُلّها تدابيراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع للبرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة، التي كانت كلها صوراً ذهنية تتراءى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النّية، وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنةً، وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة 1913 ميلادية، هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز إلى الوجود إلاّ في سنة 1931م»[1].

فحصل من هذا التعارف التجاذب النّفسي والتواؤم الروحي والتقارب العقلي، وأحبَّ كل واحد منهما الآخر حُبّا جَمّا، خالصا لوجه الله، مبرّءًا عن أيِّ مصلحة مادية، أو غرض دنيوي زائل، بل تحابّا في الله، اجتمع قلباهُما عليه، وعقدا العزم على نصرة دينه، وخدمة الإسلام والعربية في الجزائر، فتصوروا المشروع النّهضوي، ووضعا التصاميم لذلك، وعقدا العزم على إنقاذ الجزائر من براثن الاستعمار، فاتفقا على وجوب العودة إلى الجزائر، يقول ابن

(1) آثار الإمام الإبراهيمي،ج 5، ص 278.

باديس: «أذكر أنني لما زُرت المدينة، واتصلت فيها بشيخي الأستاذ حمدان الونيسي المهاجر الجزائري، وشيخي حُسين أحمد الهندي، أشار عليَّ الأول بالهجرة إلى المدينة وقطع كل علاقة لي بالوطن (على غرار ما فعله الونيسي نفسه)، وأشار عليَّ الثاني وكان حكيماً بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد، فحقق الله رأي الشيخ الثاني، ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته، فنحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية في هذا الوطن»[1].

ومما لا شك فيه أنه من أسباب ترجيح جانب العودة إلى الجزائر لخدمة الإسلام على خيار الإقامة في المدينة المنورة، هو العهد الذي قطعه الإبراهيمي على نفسه، وعاهد عليه الشيخ ابن باديس بأنَّه سيلتحق به، ويعود هو الآخر إلى الجزائر، لمؤازرته[2].

فافترقا على أمل اللّقاء في ميدان المعركة، في أقرب وقت، فعاد ابن باديس إلى أرض الوطن، وباشر مشروعه التعليمي، الإصلاحي، الوطني، بالتدريس، ودروس الوعظ والإرشاد،

واستمرَّ كذلك إلى أن جاءته البشريات بأنَّ البشير الإبراهيمي قادم إلى الجزائر، للاستقرار، فارتحل إلى تونس لاستقباله هُناك[3]،

تعاون متكامل:

وعاد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلى أرض الوطن، عام 1920م، وحطَّ الرِّحال أولاً في مدينة قسنطينة ليزور صديقه الوفي، عبد الحميد بن باديس حتى قبل أن يزور أهله وأقارباءه، وهناك -في قسنطينة- رأى بأم عينيه ما سرَّ

(1) آثار الشيخ ابن باديس، ج6، 165.

(2) آثار الإمام الإبراهيمي، ج 5، ص 278.

(3) آثار الإمام الإبراهيمي، ج5، ص 279.

قلبَه، وأثلج صدرَه، رأى تلك الجحافل من طلاّب العلم، رأى الكتائب الأولى المعدّة لمعركة الهُوية الثقافية والحضارية والوطنية الصّادقة قد استوت على سوقها، تُعجب أهل الإيمان والإصلاح، وتُغيظ الاستعمار وأعوانه وأذنابه،

ولا نكون مبالغين إذا قُلنا بأنَّ أكثر الناس ابتهاجًا، بعودة الإمام الإبراهيمي هو الشيخ عبد الحميد بن باديس، لما آنس فيه من إخلاص نفسي، واقتدار علمي، واستعداد لخوض المعارك العلمية والثقافية،

وبدأ التعاونُ الجادّ بين الرّجلين العظيمين، ولو بشيء من التخفي والاستحياء، لأنَّ الشيطان لا ينام، والاستعمار بالمرصاد، يحسب عليهما أنفاسهما، فكيف يصبر على النشاط العَلني، والاتصال بالنّاس لتنويرهم وتثقيفهم وتوعيتهم،

وكان أوّل مظاهر التعاون طلب الشيخ عبد الحميد بن باديس من الإبراهيمي أن يعد قانونًا لجمعية (الإخاء العلمي) ويحدثنا الشيخ الإبراهيمي عن ذلك بالقول: «زارني الأخ الأستاذ عبد الحميد بن باديس، وأنا بمدينة سطيف أقوم بعمل علمي، زيارة مستعجلة في سنة أربع وعشرين ميلادية (1924)، فيما أذكر، وأخبرني بموجب الزيارة في أوّل جلسة، وهو أنَّهُ عقد العزم على تأسيس جمعية باسم (الإخاء العلمي) يكون مركزها العام بمدينة قسنطينة، العاصمة العلمية، وتكون خاصة بعمالتها، تجمع شمل العلماء والطلبة، وتوحّد جهودهم، وتقارب بين مناهجهم في التعليم والتفكير، وتكون صلة تعارف بينهم ومزيلة لأسباب التناكر والجفاء...»[1].

وظل التزاورُ بينهما قائمًا، والتشاور مستمرًا، والتفكير ممدودًا في البحث عن أنجع الوسائل لخدمة الشعب والارتقاء به بالتعليم والتهذيب، حتى تهيأت

---

(1) آثار الإمام الإبراهيمي، ج1، ص 184.

الظروف، وقامت الأسباب لإعلان تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م. وكان للإمامين الجليلين ابن باديس والإبراهيمي الدور الحاسم في بلورة الفكرة، ورسم معالمها، وضبط أصولها، وتحديد أهدافها، وتدوين قانونها الأساسي، وكلٌّ ذلك من وراء السّتار، حتّى لا يثيروا حفيظة الطُّرقيين أعوان الاستعمار، فيجهض المشروع من أساسه، ويكون ذلك قرّة عين للاستعمار، وشوكة في حلقِ المصلحين الأخيار... قال الإبراهيمي: «كلفني إخواني أعضاء المجلس الإداري في أوّل جلسة أن أضع للجمعية لائحة داخلية تشرح أعمالها كما هي في أذهاننا لا كما تصورها الحكومة وأعوانها المضلّلُون منّا، فانتبذتُ ناحية ووصلت طرفي ليلة في سبكها وترتيبها...»[1].

وانتخب الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيساً للجمعية دونما سعي منهُ، وإنّما لسبقه في الجهاد، ووصله ليله بنهاره في نشر العلم، وتهذيب الأمة به، فالمسؤولية تكليفٌ وليست تشريفًا، وانتِخبَ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي نائبًا للرّئيس،

وألقى الشيخ الرئيس خطبة بالمناسبة نوّه فيها بجهود الإبراهيمي من أجل إنجاح هذا الاجتماع، يقول الإبراهيمي: «وخطب الرئيس عند تمام مناقشة اللائحة وإقرارها بالإجماع خطبة مؤثرة أطراني فيها بما أبكاني من الخجل، وكان مما قال: عجبت لشعب أنجب مثل فلان أن يضل في دين، أو يخزى في دُنيا، أو يذل لاستعمار، ثم خاطبني بقوله: وري بك زناد هذه الجمعية»[2].

وتباشر الجمعية أعمالها في الميدان: التعليم في المدارس، والوعظ والإرشاد في المساجد، والمحاضرات في النوادي، والمقالات في الصُحف، والرحلات والجولات في أنحاء القُطر،

---

(1) آثار الإبراهيمي، ج5، ص 281.

(2) آثار الإبراهيمي، ج 5، ص 281.

ويقوم الشيخ ابن باديس برحلة إلى مدينة تلمسان، حاضرة الثقافة والعلم، ويختلطُ بأهلها، وتتعدد الزيارات، وفي كل مرّة كانوا يرون من خلقه الكريم ما يدل على تدين راسخ، ومن مواقفه ما ينبئ عن وطنية صادقة، وإحاطة بالواقع ومقتضياته، فعرضوا عليه البقاء معهم وبينهم، للاستفادة من علمه، وليكونوا عونًا له في مشروعه الإصلاحي، ولكن الشيخ ابن باديس اعتذر لهم بأنَّه ترك في قسنطينة مئات من الطُّلاّبِ الذين وفدوا على الجامع الأخضر، لينهلوا العلم والمعرفة، وهم أغلى ما عنده، وأنفس ما يدخره للجزائر ومستقبلها الزاهر، فاقترح عليه كرامُ التلمسانيين أن ينقلوا معه طلبته وأن يتكفلوا بهم جميعًا،

وهُنا يقطع ابن باديس عليهم الكلام، ويعلمهم بأنَّهُ سيرسل إليهم بمن يسد هذه الثغرة، ويقوم بالواجب الذي تريدون وزيادة، إنَّه فخر علماء الجزائر، وهو العلاّمة محمّد البشير الإبراهيمي،

وظل ابن باديس يتابع نشاط الإبراهيمي في شتى المجالات، وفي كل مرّة يبدي إعجابه، بل ورضاه عمّا يقوم به، ويزجي له المديح الذي يدفعه لمزيد من العطاء والتجدد، يقول الإبراهيمي: «وأذكر أنه صادف في ليلة من الليالي الزاهرة بحياته درسا في دار الحديث من تلمسان في قوله تعالى (**وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة**) – فقال لي: رحمه الله– بعد تمام الدرس ما معناه– إنّ هذا الدّرس وحده كاف لإحياء أمّة مستعدة، ولقد زادني هذا الدرس إيمانا بقوله ﷺ في القرآن: «لا تنقضي عجائبه»، إن ما سمعته منك في معنى اتخاذ البيوت قبلة، هو ما حوّم عليه علماء الاجتماع في مبدإ تكوين الوحدة الاجتماعية للأمم، وأين هداية التجارب من هداية كلام الله؟

ولوددت لو أن المسلمين كلهم يسمعون مثل هذه الدروس، فقلت له ممازحًا: والبصائر.. فقال لي: ما عليك بعد هذا الجهد أن لا تكتب في البصائر، ولو أنّ التلاميذ أوتوا حظا من النشاط والتوفيق لما ضاعت هذه الدروس ولنشرت كما هي ففزنا بالحسنيين، فقلت له: عزائي عن هذا أنَّ دروسك لم تكتب وأين هذا الوشل من ذلك البحر، وما قلت هذا مجاملا ولا متواضعا، وما كان الأمر بيننا -ما عشنا- على الرياء والمجاملة...»[1]،

وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس كلّما اكتشف وجهًا من وجوه العبقرية، أو مظهراً من مظاهر النبوغ في أخيه وصديقه، محمد البشير الإبراهيمي، كلّما ازداد حبّا له، وتعلقا به، وازداد اطمئنانا على مستقبل الحركة العلمية والإصلاحية في الجزائر، من ذالكم ما اكتشفه فيه في الرّحلة البحرية التي جمعتهما على ظهر الباخرة، وهما متوجّهان إلى فرنسا لعرض مطالب المؤتمر الإسلامي على رجال الحكومة الفرنسية، من اطلاع واسع على الأدب العربي، وحفظه لدواوين الشعر، حتى أنه كاد ينشر كتاب نفح الطيب من حفظه، فقال الشيخ ابن باديس: «فقلنا إنّ الأستاذ قد عوضه الله من القوة في عقله ما ضاع عليه في رجله وكدنا نغبطُه على عرجه»[2]،

بل وصرّح الشيخ ابن باديس بأنّ هذا هو النموذج الذي يُفكر إعداد تلامذته على ضوئه، باعتبار أن هذا النموذج من العلماء هو الذي يحفظُ على الأمة دينها ولغتها وقوميتها.

والدّليل على أنَّ الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي كان يتمتّع بموقع متميز، ومكانة خاصّة، في قلب الشيخ ابن باديس وعقله، أنه كان يُسند إليه المهمات الصَّعبة، ويدخرُه للملمّات المهمّة والأوقات الحرجة، وسأذكر بعض هذه الأمور:

(1) آثار الإبراهيمي، ج2، ص 195.

(2) آثار الإمام ابن باديس، ج 4، ص 307.

1– وهو ما تقدم ذكرُه، وهو أن الشيخ عبد الحميد بن باديس لما انتخب رئيسا لجمعية العلماء بالإجماع غيابيًا، كلّف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بإعداد لائحة داخلية تشرح أعمالها، وتصور فكرتها، وتحدد آلياتها...

2– لما فكر الشيخ عبد الحميد بن باديس في الرّفع من مستوى جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لم يجد من يعوّل عليه في تحقيق هذه الرّغبة، وتجسيدها ميدانيا غير الإمام الإبراهيمي صاحب الفكر الجوّال، والقلم السيّال، وقد صرّح الإبراهيمي بهذا: «... مات الفقيد في السادس عشر من أبريل 1940م، وفي نفسه حسرة من تعطيل جريدة «البصائر»، كان معتزا بها أيما اعتزاز، وكان يغذيها بنفحات من روحه ونفثات من قلمه، وكان يعلق آماله في ترقيتها على رفيقه كاتب هذه السطور...، وكان رحمه الله يشتد عليّ في اللوم ويصمني بالتقصير في حق البصائر...»[1]،

3– لقد فكّر الشيخ عبد الحميد بن باديس في تأسيس كُلية للعلوم الشرعية لتخريج العلماء والدعاة إلى الله على بصيرة، الذين يقومون بحمل المشروع على أساس من العلم والحقّ، لا يخافون في الله لومة لائم، فاقترح على الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أن يسطر الجانب التربوي لهذه الكُلية، إيمانًا منه بقدرة الشيخ العلمية والتربوية، يقول الإبراهيمي: «وقد اقترح على كاتب هذه السطور أن يضع برنامجًا جامعا لدروس الكُلية وكتبها ودرجاتها، ومناهج التربية فيها، وطرائق التعليم العالي، فقلت له إن هذا شيء يأتي في الدرجة الثانية أو الثالثة، وقبله التمهيد ثم التشييد، فقال لي: إن البرنامج يذكي النشاط ويغري الهمم بالعمل، ففعلت، وجاء البرنامج حافلا بالتدقيقات الفنية في التربية، والاعتبارات العلمية في التعليم، والكتب القيمة للدراسة، ومعه تخطيط للكلية ومرافقها.

---

(1) آثار الإبراهيمي، ج2، ص 194.

فلما قرأه قال لي: كأني أرى بعيني ما خطّه قلمك حقيقة واقعة، وما ذلك على الأمة الجزائرية الماجدة بعزيز، وما ذلك على رجالها المخلصين بكثير»[1]،

4– من أعظم الأدلّة على التقارب العقلي، والتواؤم الرّوحي بين الرّجلين، والثقة النفسية والعلمية التي كان يضعها الشيخ عبد الحميد بن باديس في صفيّه، ورفيق دربه، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، أنّه اقترح عليه أن يُشاركه في عمل علمي ضخم، يعد فيه الشيخ ابن باديس نسيج وحده، ألا وهو التفسير، وما ذلك إلاّ لإيمان الشيخ ابن باديس بالعمل الجماعي، ووجوب التعاون على الخير، واستغلال كل الكفاءات والمهارات المتوفرة، والدّفع بها إلى الأمام لمزيد من العطاء والعمل، والإنتاج من جهة،

ومن جهة أخرى فإنّه يعكس أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كان يملك مؤهلات التفسير كاملة غير منقوصة، بشهادة إمام هذا الفن بلا منازع، وصاحب النظرات المسدّدة، والوقفات المتأنية فيه، يقول الإبراهيمي: «كان ذلك الأخ الصديق رحمه الله يعلل النّفس باتساع الوقت وانفساح الأجل حتى يكتب تفسيرا على طريقته في الدّرس، وكان كلّما جرتنا شجون الحديث إلى التفسير يتمنى عليَّ أن نتعاون على كتابة التفسير ويغريني بأنّ الكتابة عليَّ أسهل منها عليه، ولا أنسى مجلسا كنا فيه على ربوة من جبل تلمسان في زيارة من زياراته لي وكنا في حالة حزن لموت الشيخ رشيد رضا قبل أسبوع من ذلك اليوم، فذكرنا تفسير المنار، وأسفنا لانقطاعه بموت صاحبه فقلت له: ليس لإكماله إلا أنت، فقال لي: ليس لإكماله إلاّ أنت، فقلت له: حتى يكون لي علم رشيد وسعة رشيد ومكتبة رشيد ومكاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد، فقال لي واثقا

---

(1) آثار الإبراهيمي، ج2، ص 196.

مؤكداً: إننا له لو تعاونا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمّة تفسيرا يُغطي على التفاسير من غير احتياج إلى ما قلت»[1]،

لكن إلى جانب هذه المواقف التي تعكس الرّسوخ العلمي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الأمر الذي أكسبه ثقة الشيخ عبد الحميد بن باديس فيه إلى درجة أن أصبح أمين أسراره، ومستودع أفكاره، هناك أمرٌ آخر لا يقل أهميّةً عن العلم وهو المحافظة على شرف العلم، وعدم تسخيره للتغطية على الباطل، ناهيكم عن خدمته، أو الترويج له، ولذا لمّا حاولت فرنسا حمله على أن يكون مُحرّضا ضد النازية لصالح السياسة الفرنسية، بالترغيب والترهيب، ولكنّ الإبراهيمي وقف موقفا حازما ضد الفكرة من أساسها، وقال بصوت عالٍ، لنائب الوالي بتلمسان: «يكفي سكوتي على الاستعمار كجميل أسديه إليه فكيف تطلبون مني عملا كهذا؟ فضلا عن أنني مستعمرٌ مثل بقية شعبي ولن أقبل هذا العمل اليوم أو غداً» فغضب نائب الوالي وأمره أن يستعد للنّفي إلى مدينة «آفلو»، فأجابه الشيخ الإبراهيمي بقوله: «الحقيبة معي وأنا مستعد لذلك، وقد ودعت أهلي وسأذهب إلى «آفلو» بإرادتي وأنا فرح خيرٌ من أن أفعل ما تطلبه مني فرنسا، فأقول كذباً، وأمدحها بما ليس فيها، لأننا لم نر منها سوى الشر، وقد احتلت أرضنا وجعلت من شعبنا عبداً»[2]،

فهزت هذه الفحولة العلمية، والرّجولة الكاملة، الشيخ ابن باديس وهو يُغالب مرضه الذي توفي فيه، وكأنّ هذا الموقف نشطه من مرضه، فكتب إليه رسالةً صغيرة الحجم، قليلة الأسطر، ولكنّها في حقيقة أمرها هي وسام فخر

---

(1) آثار الإبراهيمي، ج2، ص 259.

(2) مسيرة الحركة الإصلاحية في تلمسان، جمع وإعداد خالف مرزوق، المختار بن عامر، ص 109، طبع مركز التصوير، تلمسان 2003).

مرصّع في جبين الإمام الإبراهيمي، ونص هذه الرسالة هو: «الأخ الكريم الأستاذ الشيخ البشير الإبراهيمي سلمه الله، ورحمه الله وبركاته وبعد،

فقد بلغني موقفكم الشريف الجليل العادل، فأقول لكم: الآن يا عُمر فقد صُنت العلم والدين، صانك الله، وحفظك في تركته، وعظمتهما عظّم الله قدرك في الدنيا والآخرة، وأعززتهما أعزّك الله أمام التاريخ الصادق، وبيّضت محيّاهما بيّض الله مُحيّاك يوم القيامة، وثبتك على الصراط المستقيم، وجب أن تطالعني برغباتكم والله المستعان»[1]،

ولنا أن نتصوّر عظيم الوقع الذي تركته هذه الرّسالة في نفس الشيخ الإبراهيمي، لأنه لما وصلته كان الإمام المبرور حتى التحق بالرّفيق الأعلى، فهي تحمل آخر توصيات الإمام وتوجيهاته، وفيها آخر نفسه الطاهر،

وفاء لا نظير له:

شكّلت وفاة الإمام المبرور الشيخ عبد الحميد بن باديس فاجعة كبرى، ورزية عظمى، فهو واسطة العقد للجمعية، وكان بالنّسبة لباقي الأعضاء كالشمس بالنّسبة لباقي الكواكب في المجموعة الشمسية، وها هم يفقدون القائد الملهم الموهوب وهم أحوج ما يكونون إليه وإلى توجيهاته الرشيدة وآرائه السديدة، ومواقفه الشديدة،

ولكن سرعان ما وفق أعضاء الجمعية لسد هذه الثغرة، حين اختاروا غيابيا، وبالإجماع الإمام الإبراهيمي رئيسًا للجمعية، خلفًا لابن باديس، وهو منفي في «آفلو» فأعطوا بذلك القوسَ باريها، ووجّهوا القافلة إلى مسارها الصّحيح، وأفسدوا على الاستعمار مسعاه الرّامي لانتخاب رئيس للجمعية غيره،

(1) المرجع السابق، ص 111.

ولقد عبّر الإبراهيمي عن صعوبة مُواصلة المعركة ضد الاستعمار، من دون الشيخ ابن باديس، لما كان يتمتع به من فكر نيّر، وشجاعة نادرة، وإرادة فولاذية، فها هو يهتف في الحاضرين من أعضاء جمعية العُلماء، في أول اجتماع له بهم بعد خروجه من السّجن، فيقول: «وها قد عاد المُبعد، وأطلق السجين، وكل ذي غيبة يؤوب، وغائب الموت لا يؤوب، فأين قمر هذه الحقبة ومبعث ما كان يلوح عليها من هيبة وجلالة، أين فارس هذا الميدان المعلم، وبطله المشيح، أين ذلك الفكر الجوّال؟ وأين ذلك العزم الصّوال؟ وأين ذلك اللسان القوّال؟ أين إمام الصّفوف، وقائد الزحوف، ومنتضي الآراء قاطعة كالسيوف، ماضية كالحتوف؟ أين –لا أين– ذلك الإمام الذي كانت تصعد الأبصار وتصوب فلا تقع إلا عليه، وتمتد أيدي الالتماس فلا تُشير الأصابع إلا إليه؟ أين ذلك المفرد العلم الذي شأى من قبله وأتعب من بعده»[1].

وهكذا أراد الإبراهيمي أن يبقى الشيخ عبد الحميد حيّا في وجدان إخوانه وأبنائه العُلماء، يستأنسون بآرائه، ويهتدون بمواقفه في مجابهة الاستعمار، وخدمة الأُمّة.

ولكن الإبراهيمي لم يكن يريد أن يُعطي للمسألة بُعداً شخصياً، ولذلك حدّد لإخوانه منهجية صارمة، لتذكّر أستاذهم والاحتفاء به، وهو التذكير بالأعمال الجليلة التي وقف الشيخ المبرور حياته من أجل تجسيدها وتحقيقها خدمة للدين، وصوناً للوطنية، فيعملوا جاهدين، متّحدين متعاونين للمضي بها قُدُمًا نحو الأمام، وسأذكر بعض المشاريع التي بذل الشيخ الإبراهيمي جُهده لإنجازها لأن الشيخ ابن باديس كان قد فكّر فيها ولم تواته الظروف لتحقيقها.

(1) آثار الإبراهيمي، ج2، ص 120.

1- بعث جريدة البصائر، والرفع من مستواها، فقال: «... فعودة «البصائر» إلى الظهور بهذه الديباجة وبهذا الأسلوب أملٌ من آمال الفقيد قد تحقق ودين على جمعية العلماء قد وفّت به في وقته، وما أرهق الدائن ولا مطل الغريم، ولو عاش -رحمه الله- لقرّ بهذا العمل عينا، فليكن هذا العمل هو زين هذه الذكرى وجمالها وشارتها الممتازة ووشيها الفني»[1]،

2- تأسيس معهد عبد الحميد بن باديس - فقال: «... فلمّا تنفّس الحناق قليلاً رأت جمعية العلماء التي كان يعمل الفقيد لها وباسمها وهي الوارثة لمعنوياته والمؤتمنة على مبدإ الإصلاح المشترك أن تتم أعماله وتحقق آماله وأن تبرز الكلية من الخيال إلى الحقيقة»[2]،

3- دعوة أعضاء الجمعية للتأسي بابن باديس: ومن مظاهر وفاء الإبراهيمي للشيخ ابن باديس أنه لم يكن يفوّت فرصة إلا ويُشيد بخصال الفقيد، ويدعو أعضاء الجمعية لِلتأسي به في العمل والبذل، والعطاء والتضحية، وكان الشيخ يبرز جوانب معيّنة في الشيخ يرى بأن المرحلة تقتضيها، فيصوّرها أحسن تصوير، وسنخص بالذكر منها:

1- استخفاف الشيخ بالاستعمار: لقد كان الاستعمار بالمرصاد للجمعية ونشاطاتها، وكان يضيق ذرعًا بأي نشاط يقوم أي عضو من أعضاء الجمعية، ويتحيَّنُ الفرصة للإيقاع به وإنزال أشدّ العقوبات به، ففي مثل هذا الجوّ لا يستطيع العُضو التحرُّك إلا إذا كان قلبهُ مفعمًا بالإيمان، مُحتسبًا الأجر عند الله عزَّ وجلّ،

والشيخ عبد الحميد بن باديس، كانت له مواقف عظيمة في مواجهة الاستعمار، ومجابهته، والاستخفاف به، وما دفعه إلى هذا كله إلا إيمانه الصادق باللّه، وثقته فيه، والاعتزاز به، وكان الإمام الإبراهيمي يذكّر أعضاء

---

(1) آثار الإبراهيمي، ج2، ص 195.

(2) آثار الإبراهيمي، ج2، ص 196.

الجمعية بهذه المواقف حتى يتأسوا بإمامهم في ذلك، فيضحوا كما ضحّى، ويثبتوا كما ثبت، ويواجهوا الاستعمار وعملاءه بعزة المؤمن الواثق من تأييد الله له، ونصره إيّاهُ، يقول الشيخ الإبراهيمي: « ... وكان كلما اجتمعت ثلة من إخوانه تشاركه في الأمنية والرأي يجري حديث الكلية ويقول لإخوانه: أنا أستكفيكم في كل أمر يتعلّق بالكلية إلا الاستعمار، فأنا أكفيكموه فخلّوا بيني وبينه، يقول ذلك إيمانا بربّه، واعتداداً بنفسه، واعتزازا بدينه، وكان منقطع النّظير في هذه الثلاثة»[1].

2- اعتزاز الشيخ عبد الحميد بن باديس بإخوانه العُلماء: إن المشروع الإصلاحي الذي نذر له الشيخ ابن باديس حياتهُ، هو مشروع عملاق يتجاوز قدرة الأفراد مهما أوتوا من العبقرية والكفاءة، وإنّما هو مشروع جماعي كبير يحتاج إلى رصّ الصفوف، وتجميع الجُهود، فالمؤمن ضعيف بنفسه قوي بإخوانه، والشيخ ابن باديس كان كثير الاعتزاز بإخوانه يرى فيهم خير عون له، ونعم السند يستند إليه لتجاوز الصعوبات، والاستجابة للتحديات التي تقف وجه عثرة في طريق المشروع، فكان الشيخ الإبراهيمي ينوّه بهذا الجانب المضيء في شخصية ابن باديس، فيقول: « ... فقد كان رحمه الله على جرأته وبديهيته وبيانه وشجاعته، ربما تدركه الفترة في الرأي في المواقف الحرجة فيلتفت فيرى إخوانه إلى جنبه فيندفع كأنما مسّته كهرباء، وكأنه الآتي المنهمر، فلا يبقي ولا يذر»[2].

3- التجرد ونكران الذّات:- إنّ الرجال الذين يخدمون الدّعوات، ويُسيّرون الحركات، لخدمة أمّتهم، ورفع الحيف عنها، هم رجال عالوا الهمّة، وليسوا انتفاعيين أغراراً، يوظّفون الحركات لخدمة مآربهم الشخصية، وتحقيق مطامحهم المادية، بل إنّ من أهم صفاتهم التجرد،

(1) آثار الإبراهيمي، ج...، ص ...
(2) آثار الإبراهيمي، ج3، ص 553.

ونكران الذّات، والبعد عن الشّخصنة، والأستاذ عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- كان مضرب المثل في الخلق الكريم، والتواضع الجمّ، وقدّم نماذج عالية في التنكُّر للذّات، والشيخ الإبراهيمي إنما كان ينوّه بهذا الجانب من جوانب شخصية الشيخ الثرية ليدعو أعضاء الجمعية أن إذا أرادوا خدمتها والسير قدما بمشروعها لا يسعهم إلاّ التحلي بهذا الخلق الكريم الذي عُرف به ابن باديس، وأصبح سمة له، وعنوانًا لأعماله، فبعد ختمه لتفسير القرآن الكريم درسًا، أقيم حفل مشهود، تبارى فيه الخطباء والشعراء في مدح الشيخ الجليل والثناءعلى عمله العظيم، ودوره الكبير في الإصلاح والدّعوة، وأراد إخوان الشيخ أن ينشروا ذلك كلّه في جريدة «الشهاب» لسان الحركة الإصلاحية ، لكن الشيخ كان حاسما في الرّفض، وبعد طول أخذ وردّ وافق الشيخ الكريم أن ينشر ما فيه تمجيد للعلم لا ما فيه مدح للشخص، يقول الإبراهيمي: «وأبت للأستاذ همته العالية وإخلاصه العمل لله أن لا ينشر في «الشهاب» إلاّ ما هو من حقوق الدين والعلم والعربية، دون ما هو من حظوظ النّفس وتمجيد الشخص، ولكن إخوانه من رجال العلم والأدب الحريصين على تخليد هذا الاجتماع القرآني المنقطع النّظير رغبوا منه أن يتنازل عن حقه من مجلّة الشهاب هذه المرّة، وأقنعوه بأن كل كلمة قيلت في مدح شخصه والثناء عليه فهي مصروفة إلى أعماله وإلى المبدإ الذي وقف حياته عليه وإلى النهضة التي كان بحق بانيها ومشيد أركانها، وإلى الأمة التي أنفق عُمره وقواه في سبيل نفعها وإحيائها...»[1]،

وأحب أن أضيف موقفا آخر للشيخ ابن باديس -رحمه الله- يعكس تواضعه الكبير وتجرده التّام، وابتغاؤه وجه الله لا غير، وذلك هو نفوره من الألقاب التي يحرُص صغار النّفوس، وقليلو الإخلاص عليها، أيّما حرص، ويدخلون في

(1) آثار الإبراهيمي، ج1، ص 319.

معارك من أجلها، ويعتبرون عدم تصدير أسمائهم بها، نقصية لهم، وغميزة في مكانتهم، فيسالمون ويحاربون، ويعادون ويوالون،ويقرّبون ويبعّدون، بمقدار ما يحافظ المتلفّظ لأسمائهم على هذه الألقاب، ويكثر منها، أما الشيخ عبد الحميد بن باديس، فكان يكتفي بـ (أخوكم عبد الحميد بن باديس)- أو (الرئيس عبد الحميد بن باديس)، ولذلك لما حدثنا عن الوفد الكريم الذي ذهب إلى فرنسا باسم المؤتمر الإسلامي ودوّن ملاحظاته عن الرّحلة، وذكر نفسه، باسم الأستاذ قال مُعقّبًا: «هذه هي المرة الأولى والأخيرة أعبّر فيها عن نفسي كما عبّرت عن رفيقي بـ «الأستاذ» فإن ما كنا نشعر به من الاتحاد الرّوحي كره إليّ أن أعبر عن نفسي بغير ما عبّرت به عنهما. وأنا في قرارة نفسي أكره التواضع المصنوع كما أبغض الادعاء الكاذب، فأما الادعاء الكاذب فلا أعرفه من نفسي ولا مرّة واحدة، وأما التواضع المصنوع فممّا تقتضي به العادة ويحتمه أصل التربية وقد خرجت عنهما هذه المرة امتثالا للطبع ولن أعود»[1]،

والحق يقال أنّنا لو جمعنا كُلّ الألقاب المتداولة بين أهل العلم والفكر والدعوة كالأستاذ، والشيخ، والمفكّر، والداعية، والحُجّة، وسماحة الشيخ، وآية الله، وحجة الإسلام... وغيرها، وصدّرنا بها بعضها أو كلّها اسمه لكان قليلا في حقّه، وحقّ رفيقه، ولكنّه التواضع الصادق الذي أكسب صاحبه هيبة في النفوس، وقبولاً ومحبةً عند الناس، ولا يحب النّاس العبد ويقبلونه إلا إذا أحبَّه الله وقبله.

وإنما الأمر كما قال الشاعر:

وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

رحم الله الشيخين الجليلين، وجازاهما عن جهادهما عن الإسلام والعربية في الجزائر، خير الجزاء.

---

(1) آثار الإمام ابن باديس، ج4، ص 308.

ختم إبن باديس لتفسير القرآن (*)



1- تمهيد

أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية، وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدّخرة لهذا القطر وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كله، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق إمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه درسا،ولما عاق حواريه الإمام رشيد رضا عن إتمامه كتابة.

إن إكمال تفسير القرآن على تلك الطريقة في مدة تساوي- بعد خذف الفترات- المدة التي أكمل اللّه نزوله فيها، يعد في نظر المتوسمين إيذانامن اللّه برجوع دولة القرآن إلى الوجود، وتمكين سلطانه في الأرض، وطلوع شمسه من جديد، وظهور المعجزة المحمدية كرة أخرى في هذا الكون.

ثم كان الإحتفال بختمه بمدينة قسنطينة في الثالث عشر من ربيع الثاني عام 1357 هـ دليلا على انسياق الأمّة الجزائرية المسلمة إلى القرآن واستجابتها لداعي القرآن واجتماع قلوبها على القرآن وشعورها بلزوم الرجوع إلى هداية

(*) «الشهاب» الجزء الرابع، المجلد 14، جوان- جويلية 1938، ص 153، عدد خاص من « الشهاب» بمناسبة ختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير القرآن.

القرآن، ولا معنى لذلك كله إلا أن إحياء القرآن على الطريقة السلفية إحياء للأمّة التي تدين به.

ثم جاءت حفلات التكريم للأستاذ المفسّر ولوفود القرآن، وما لقيته تلك الوفود من سكان الحاضرة القسنطينية من صدق الحفاوة،وكرم اللقاء وبشاشة المظهر وتهلل الأسرة وإكرام المثوى وإغداق الضيافة، آية بالغة على أن القرآن فعل فعله في تلك النفوس فجمعها على التقوى وهداها لكريم الخلال وبسط شعاعه على جوانبها المظلمة، فتعارفت بعد التناكر وتآلفت بعد التخالف، ويوشك أن يأتي بعد هذا التعارف الخير الكثير.

ولما كانت مجلة« الشهاب » هي لسان الحركة الإصلاحية التي قرّبت ما بين الأمّة وبين قرآنها من بعد، وأزالت ما بينهما من جفاء، كانت تلك المجلة حقيقة بأن تؤرخ لهذا الموسم القرآني العظيم وتدوّن وصفه وما قيل فيه ليبقى تذكرة خالدة للأجيال المقبلة، وصفحة لامعة في تاريخ النهضة الدينية العلمية بالجزائر، وعلما هاديا لمؤرخيها والباحثين عن أطوارها من أبناء الغد.

وهل يمنع من ذلك أن صاحب المجلة هو الأستاذ المفسّر، وأن معظم ماقيل في الاحتفال دائر على تقريظه والثناء عليه والتنويه بأعماله؟

قد كان بعض ذلك ، وأبت للأستاذ همّته العلمية وإخلاصه العمل للّه أن لا ينشر في «الشهاب» إلا ماهو من حقوق الدين والعلم والعربية دون ما هو من حظوظ النفس وتمجيد الشخص، ولكن إخوانه من رجال العلم والأدب الحريصين على تخليد هذا الاجتماع القرآني المنقطع النظير رغبوا منه أن يتنازل عن حقه من مجلة الشهاب» هذه المرّة، وأقنعوه بأن كل كلمة قيلت في مدح شخصه والثناء عليه فهي مصروفة إلى أعماله، وإلى المبدأ الذي

وقف حياته عليه وإلى النهضة التي كان بحق بانيها ومشيّد أركانها وإلى الأمّة التي أنفق عمره وقواه في سبيل نفعها وإحيائها وبأن تسجيل هذه الصفحة الوضاءة من صفحات الإصلاح، من الواجبات على«الشهاب» لتتصل خطواته في خدمة الإصلاح الديني وتسجيل أطواره، وتتناسق صحائفه المدوّنة لتاريخه وأخباره، فاقتنع– حفظه اللّه وأذن في أن يكون هذا العدد من «الشهاب» خاصا بالإحتفال وتوابعه وطلب من رفيقه الوفي كاتب هذه السطور أن يكتب بقلمه كلمة في تصدير العدد،وكلمة في تصوير الاحتفال وتلخيصا لما علق بذهنه من ألفاظ درس الختم ومعانيه ففعل بقدر ما وسعه وقته وحاله، وعسى أن نكون وُفّقنا لإرضاء المتعطشين المترقبين الذين حبستهم الأعذارعن حضور الاحتفال.

تلمسان – الإبراهيمي

2- كلمة التصدير لهذا العدد(*)

سُئل بعض العلماء: أية آية تصلح أن تكون عنوانًا على القرآن كله بحيث إذا كُتبت على ظهر المصحف كانت تعريفًا كاملاً به، شاملاً لجميع المعاني الكلّية التي يجدها المتصفّح فيه كما تعرف الكتب الكبيرة بجمل قصيرة، فكان جواب هذا العالم: الآية التي تصلح لذلك هي قوله تعالى: **(هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنّما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب)** [1].

ولعمري، لقد وُفّق هذا العالم القرآني إلى الصواب فيما أجاب به. فالقرآن كتاب يحمل في ثنييه دين اللّه الكامل، وكل ما سبقه من الكتب والصحف فهي إرهاصات له وبشارات به وإشارات إليه. ابتعث به نبيه الأمين محمداً ﷺ لهذا العالم الإنساني كله حين بلغ رشده الاجتماعي واستعد للكمال واستشرف لسائق من وراء العقل يكون سنداً له إذا زلّ، وهاديًا له إذا ضلّ، ومصححًا لخطإه إذا أخطأ، ومخرجًا له من ظلمات الحيرة إذا التبست عليه مناهج الحياة، ومفسحًا له في آماله إذا ضيقت عليه هذه الحياة المحدودة حدود الآمال، ومحرّراً له من أصناف العبودية الفكرية والبدنية التي تقلب فيها قرونًا، ومرشداً إياه إلى وسائل الكمال التي كان يطلبها فلا يجدها.

والآية الكريمة التي جعلها جوابًا لسائله بيان إلهي معجز للحكم التي اقتضت نزول القرآن والحكم التي نزل لبيانها القرآن والمثل العليا للكمال الإنساني الذي دعا إليه القرآن متدرجة في وضعها البياني تدرجها الطبيعي من نفس سامعها، بلاغ فإنذار، فعلم، فتذكّر.

(*) «الشهاب» الجزء الرابع، المجلد الرابع عشر، جوان– جويلية 1938، ص156.

وأمثال هذا العالم من ربانيّي هذه الأمّة ممّن درسوا القرآن وتدبّروه ومارسوه وراضوا أنفسهم على بيانه، واستنبطوا منه الحكم التي أنزل لتحقيقها والعلوم التي جاء لتجليتها على الناس، يكون من خصائصهم هذه الملكة، ملكة استعراض القرآن في مثل ارتداد الطرف كلما تحرك لهم وجدان وأرادوا أن يزنوه، أو نجم في آفاق نفوسهم خاطر وأرادوا أن يصححوه، أو ألقي عليهم سؤال وأرادوا أن يجيبوا عليه.

وما تظن بصاحبنا هذا أنه راعى القانون الاصطلاحي الجدلي في انطباق الجواب على السؤال، وإنما هي هيمنة القرآن على نفوس أصحابه، وإلهامها الإصابة في الرأي والتسديد في الجواب والفيح في الخصومة.

فالسائل يطلب آية جامعة (لوظائف) القرآن، لا جرم أن أول ما يخطر ببال المجيب أمثال قوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلّغ..**﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿**وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به..**﴾ الآية. وقوله: ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد**﴾. وقوله تعالى: ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيدي**﴾ وغيرها من الآيات المبيّنة لأصول الدعوة القرآنية. ثم يلتمس راية تجمع هذه الأصول مع التنويه بهذا الكتاب الجامع لها، فيقع على تلك الآية أو ما شاكلها والآيات الجامعة (لوظائف) القرآن كثيرة، ومن السهل السريع الوقوع عليها عند هذه الطائفة التي أوتيت قوة الاستعراض.

وقد يسأل عالم آخر فيقع على قوله تعالى: ﴿**هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتّقين**﴾ أو قوله: ﴿**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق**﴾. والكل مصيب رضي القانون الجدلي أم سخط. وإن كان هناك تفاوت بين الآيات في الإحاطة والبيان، فلكل جملة تزيد في آية موقع ودلالة ولكل كلمة تزيد في جملة معنى وحالة.

أما أنا –ولا أعوذ بالله من كلمة أنا– فلو أُلقي عليّ هذا السؤال لتمردت على قوانين الجدال وأجبت على المغافصة والارتجال، ولم أرع إلا الاعتبار المناسب ومقتضى الحال. وجررت السائل (عن وظائف) القرآن إلى (وظائف) أهل القرآن مع القرآن، وقلت للسائل ضع على ظهر المصحف بالقلم العريض قوله تعالى: **(وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتّقوا لعلكم تُرحمون)**. وقوله: **(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب)** واجعل جملتي **(فاتبعوه)** و**(ليدبروا آياته)** بين أقواس علّ هذه الأقواس المحنية تصيب من قارئه شاكلة انتباه فتزعجه إلى معرفة أن هاتين الآيتين هما جواز الداخل إلى أقطار القرآن، وعل هذه القلوب القاسية تستشعر حق القرآن عليها ووظيفتها التي يجب أن تقوم بها نحوه، وهي التدبر لمعانيه واتباعه.

إن حقوق القرآن علينا من التدبر والاتباع، هي التي يعروها ما يعروها من الإهمال والضياع والتفريط والغفلة. فهي التي يجب التنبيه لها والتذكير بها دائماً والدلالة على مواقعها من آيات الكتاب العزيز، وهي التي يجب على العالم القرآني أن يختار للتذكير بها أصرح الآيات في معناها وأظهر الجمل في الدلالة عليها وأقرب الألفاظ لأذهان الناس. وإذا قرنّا بين **(لينذروا)** وبين **(ليدبروا آياته)** وجدنا بينهما فرقًا جليًا لا يُستهان به في مقام التذكير والإبلاغ في التأثير. فإن الإنذار –وإن كان معناه الإعلام بالشيء مع التخويف من عواقبه– لا يستلزم التدبر الذي هو انفعال نفساني ذاتي يفضي إلى النظر في إدبار الشيء وغاياته على وجه من التكلف والتدرج يفيده بناء تفعُّل وأثر الإنذار تأثير خارجي، وأثر التدبُّر تأثر ذاتي، والإنذار لا يشعر النفس ما يشعرها التدبُّر من العهد المسؤول والأمانة الثقيلة.

أما الاتِّباع فهو ثمرة التدبُّر وهو الذي لا تتحقق الغايات التي يرمي إليها القرآن إلا به، وقد تكرر ذكره في القرآن في معارض شتّى تدلّ مُستعرضها على أنه هو سرّ التديُّن والتألّه. وأنه المحقق للكمال وأنه العاصم من الضلال والهلاك فليتدبر التالي هذه الأمثلة من الآيات القرآنية: **(اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربّكم)**، **(وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه)**، **(فاتبعوني يحببكم اللّه)**، **(واتبع سبيل من أناب إلي)**، **(اتبعوا المرسلين)**، **(اتبعوا من لا يسألكم)**، **(فمن اتبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى)**، **(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها)**، **(واتبعت ملة آبائي)**.

ويا للعجب من بيان القرآن وبيّناته وإعجازه بفنون إيجازه. إن الاتباع ضرب من قَفْوِ أثر الغير وترسم خطاه والانقياد له وجعل الهوى تبعًا للهوى مع اطمئنان بالمشاركة في النتيجة خيراً كانت أو شراً. وفي معناه من الهجنة أنه ينافي الاستقلال الفكري في الفكريات والذاتي في الذاتيات، فتجد القرآن يدفع عنك أثر هذه الهجنة العارضة فيأمرك بالتدبُّر واستعمال الحواس الظاهرة والباطنة في وظائفها الفطرية قبل أن يأمرك بالاتباع، حتى تطمئن إلى أنك إنما تتبع فيما فيه حَقّ وخير ورحمة، ثم إذا أمرك بالاتباع فإنما ذاك فيما يتعالى على فكرك إدراكه أو يصعب عليك تمييزه أو يخاف فيه غلبة الأهواء عليك. وبعد الأمر ينهى عن اتباع الهوى المضّل عن سبيل الحق، وعن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وعن اتباع خطوات الشيطان، وعن اتباع أولياء من دون اللّه، وعن اتباع السبل المتفرقة، توكيداً للمعنى الإيجابي وإيضاحًا للحق الذي يجب أن يتبع.

إلا أن المتدبرين للقرآن لا يخرجون من هذا الاستعراض البديع إلا مؤمنين موقنين بأن الاتباع الذي يدعو إليه القرآن هو عين الاستقلال التام للفكر

والإرادة والعقل والوجدان لأنه يحميها من شرور الأهواء ويؤويها إلى حمى الحق وحده والاحتماء بالحق الذي قامت به السموات والأرض واستقرّ عليه تدبير الكون ونظامه – استقلال ما وراءه استقلال.

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون).

هذا حق القرآن علينا يجب أن نتخذ الآيات المنبّهة عليه فواتح في المدارسة وأن تتجاوب أصداؤها في جوانب نفوسنا حتى لا ندخل حرمه إلا بعد أن نكون عرفنا حقه. إنه لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطويل عصر هم فيه أبعد عن القرآن منهم في هذا العصر، ولم يمض على الدعاة إلى الحق وقت عظمت فيه العهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت، وإنه لا مخرج لهم من هذه العهدة ولا تحلل من هذا الميثاق إلا بالدعوة إلى القرآن. فلا عجب –ونحن نشعر بثقل هذه الأمانة– من أن ترتفع أصواتنا بالدعوة إليه. وإنما العجب الذي لا عجب بعده أن نسكت أو نقصر وإن من أحكم الوسائل لجذب الأمّة إلى القرآن، وصف القرآن، وتشويق الناس إلى الإقبال عليه وتدبّره وفهمه.

فمن التسديد في الرأي والمقاربة في العمل أن ترشد الأمّة الإسلامية إلى معرفة ما ضيّعت من خير وما خسرت من هداية، بتضييعها للقرآن وإنما تعرف ذلك ويبلغ مكامن الوجدان من نفوسها، من وصفه والإشادة بشأنه والتنويه بجلاله وخطره والتنبيه على ما يحتوي عليه من العلوم الكثيرة بألفاظ قليلة، وتقريب ما ينطوي عليه من المرامي المفيدة، بالكلمات القريبة، وشرح ما فيه من الحقائق المتفرقة بالجمل الجامعة، فإن ذلك يكون أدعى لرجوع النفوس الجامحة عنه إليه وأعون على فيأتها إلى حماه والاستظلال بظله والاستمساك بحبله.

وليت شعري، أي بيان يضطلع بهذا؟ إن وصف القرآن وأساليب التشويق إلى القرآن لا توجد على أكملها في غير القرآن، فلو أن البلغاء من كل أمة وفي كل جيل اجتمعوا على أن يصفوه ببعض ما وصف به نفسه. وكانت قلوبهم على قلب رجل واحد وألسنتهم على لسان رجل واحد لعجزوا وقعد بهم القصور دون الغاية من ذلك.

ولقد وصفه جماعة من الباحثين في إعجازه وأسراره، والمتكلمين على قصصه وأخباره والمنقّبين على مثلاته وعبره، والغائصين على نكت التناسب بين آيهِ وسوره. فجاءوا بما يشبه قصورهم الإنساني لا بما يشبه كماله الإلهي! ووصفه قبلهم أعداؤه اللّد من مضغة الشيح والقيصوم أوصافًا منصفة فما بلغ هؤلاء ببلاغتهم ولا أؤلئك بإيمانهم وعلومهم غاية مما يريدون. وصفه الوليد بن المغيرة فقال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وأن أعلاه لمثمر. فعبّر بهذا الوصف عن وجدانه النفسي وعن أثر القرآن في ذلك الوجدان. ولاتصال الشعور بالوجدان جاء هذا الوصف شعريًا كما ترى. وكأنه إنصاف منتزع من نفس جائرة، وإقرار مقتلع من سريرة حائرة.

ووصفه شرف الدين البوصيري وصفًا لا غاية بعده من كلام المخلوق في الروعة الشعرية وتمكن الاقتباس وصدق التمثيل فقال:

اللّه أكبـــر أن ديـــن محمـــد وكتابـــه أقوى وأقـــوم قيـــلا
طلعت به شمس الهداية للورى وأبى لهـا وصف الكمال أفـولا
والحـــق أبلج في شريعتـــه التي جمعت فروعًا للهدى وأصـــولا
لا تذكروا الكتْب السوالف عنده طلع الصبـاح فأطفئوا القنديلا

ويا اللّه لهذا التمثيل المحكم في المصراع الأخير وما يحدثه في النفوس المفتونة بالمحسوسات.

إننا نعد من إعجاز القرآن في البلاغة ما هو شائع في جميع آياته من الدقة المتناهية في تحديد المعاني وتصوير الحقائق وتنزيل الألفاظ في مراتبها وتلوين الأساليب والتزاوج بين الصفتين أو الصفات حتى كأنهما صفة واحدة كالقوي الأمين والغني الحميد، والحفيظ العليم، والعليم الحكيم. فليقصر الواصفون وليدعوا القرآن يصف نفسه بتلك الدقة العجيبة وذلك التصوير الرائع. وليسلك الدعاة سبيلهم إلى نفوس الناس بهذه الأوصاف الرائعة من هذه الآيات الجامعة، فإن ذلك أدعى إلى التأثير والتأثر وأبلغ في باب التشويق من كل تبويب في الكلام وتحبير وتزويق.

أين يقع كل ما وصفه به البشر من قوله تعالى: (**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين**)، وما في هذه الآية من جمع أصول الإصلاح التي جاء بها القرآن مرتبة في الذكر ترتيبها في الوجود.

وأين يقع كل ذلك من قوله تعالى: (**قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين يهدي به اللّه من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور**)؟ اللهم لا..

كانت الأمّة العربية قبل الإسلام -ومثلها جميع الأمم- في جاهلية جهلاء.. فهي من الوجهة الفكرية في أحط الدرجات، ومن الوجهة الاجتماعية في أخس الحالات. وكانت لا تملك من أسباب النهضة إلا لسانًا قويمًا وفطرة غير معقدة. ولكن ماذا يغني اللسان الخصيب إذا كان يصدر عن فكر

جديب؟ فجاءها الله بالقرآن وفيه كل ما كان الفكر العربي يتطلبه من العقائد النقية والحقائق العلمية، وكل ما كان اللسان العربي يصبو إليه من آفاق وميادين. فنهض العرب به وبلسانهم الذي نزل به وأنهضوا الأمم معهم، تلك النهضة التي زلزلت العالم الروحي العقلي فأذهبت مخارقه وثبتت حقائقه، وزلزلت العالم المادي فذهبت بطغيانه وشروره ورذائله وأقرّته على التشريع العادل والمعاملة الرحيمة. ثم لاءمت بين الروح والمادة بمعاني التوسط والاعتدال البادية في عقائد الإسلام وآدابه وأحكامه. وجاءت بالمعجزة الكونية الكبرى في تحقيق الحلم الإنساني بتلك الملاءمة وهي أمنية عجزت عن تحقيقها كل تعاليم الأرض، ولم تف بها تعاليم السماء قبل الإسلام لحكمة وأمر قد قدر.

وانساح الإسلام في الأرض يزجي جيوش الأخلاق قبل جيوش الخلائق، وبسط ظله على الأقطار الممتازة بخصوبة الأرض، وعلى الأمم الممتازة بخصوبة الفكر وزرع تعاليمه في عقول مستعدة، وأفاض عليها من روحه: إن الغاية في هذا الوجود سيادة في الحق وسيادة بالحق وأن لا سبيل إليهما إلا بالعلم والعمل وأن عمران الأرض متوقف على عمران العقول والنفوس. وبنى بذلك تلك الحضارة التي لا ينكرها إلا مكابر يماري في الشمس وضحاها.

إن الآفة الكبرى التي قضت على الحضارات وجعلت عاليها سافلها، هي التفرق بين بناتها والمستحفظين عليها، وقد كان للمسلمين – من بين الأمم القديمة والحديثة– معتصم باذخ لو اعتصموا به لوقاهم من التفرق فوقى حضارتهم من الانهيار. وهو القرآن ودينه الإسلام –نعمة خُصّوا بها دون الأمم.

كانت تعصف بهم من عواطف التفرق وتثور فيهم من طبائع الملك وغرائز المنافسة فيه ما أقله كاف في تدمير الممالك وتتبير الحضارات، فيرجعون إلى القرآن ويعتصمون بالإسلام فيجدون فيهما الوَزَر الواقي، إلى أن داخلتهم الأعراق المدسوسة، ومازجتهم الجراثيم الغريبة وابتلوا بلقاح سوء مما أفسد من قبلهم وكان من تأثير ذلك أنهم انتقلوا من التفرق الذي يعصم منه الدين إلى التفرق في الدين نفسه وفي القرآن نفسه. ثم زهدوا في الدين فلم تبق إلا الصور العملية بلا روح. وزهدوا في القرآن إلا الألفاظ المتلوة بلا نذير، حتى كانت عاقبة أمرها خسراً، وذاقت السوء بما صدّت عن سبيل اللّه.

إن أسلافنا قاموا بما شرط عليهم القرآن في قوله: (**الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر**). فتحقق معهم وعد اللّه في القرآن: (**وعدّ اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلّنهم من بعد خوفهم أمنا**). فكانوا خلفاء الأرض يقيمون فيها الحق والعدل وينشرون فيها الخير والرحمة ويطهرونها من الشرك والوثنية ويحققون حكمة اللّه بإقامة سننه الكونية والشرعية، لا يراهم اللّه إلا حيث يرضيه أن يراهم. لأن مما أفادهم القرآن استجلاء العبر من قوله تعالى: (**ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**) وقوله تعالى: (**وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم**).

وقوله تعالى: (**أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم**).

وكان هؤلاء السلف يعلمون لماذا أُنزل القرآن؟ ويعلمون أنه كتاب الدهر ودستور الحياة، وحجة اللّه الباقية إلى قيام الساعة وأنه واف كل الوفاء بإسعاد البشر في الحياتين، وأن عدم فهمه وعدم العمل به وعدم تحكيمه كل ذلك تعطيل له. ففهموه أولاً وحكموه في أهوائهم ونزعاتهم فاستأصل باطلها ولطف من نزواتها، ورجعوا إليه في فهم الحقائق الغامضة في الحياة والدقائق المشكلة في الكون والأخلاق التي يجب أن يتعايش بها الناس، فرجعوا إلى معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد انضوت تحت لوائه أمم مختلفة الأهواء والمنازع والفهوم، فوحّد أهواءها وقارب بين منازعها وفهومها ووفّق بين مصالحها، وهذه النقطة التي عجزت عنها التربية التعليمية والقوانين الوضعية إلى يومنا هذا.

يعتقد المسلمون كلّهم أن سلفهم كانوا أكمل إيمانًا من خلفهم وهذا صحيح، ولكنهم لا يبحثون عن علة كمال الإيمان في السلف حتى لكأنهم يعتقدون أن ذلك بوضع إلهي وتخصيص رباني لا يد للكسب فيه، وهذا خطأ فاحش وجهل فاضح.

وما دام الكلام في الإيمان، فهاته وانظر كيف فهمه السلف ومن أي معين استقوا فهمه ومن أي أفق استجلوا حقائقه. ثم انظر كيف فهمه الخلف ومن أين سقطت عليهم هذه الفهوم السخيفة. ثم أرجع كل معلول إلى علته بلا إجهاد للذهن ولا إنضاء للقريحة.

إن السلف تذرّعوا لفهم القرآن ذريعتين: الذوق العربي الصحيح، والسنة النبوية الصحيحة. وقد كانوا يؤمنون بأنه كل لا يتجزأ وأن بعضه يفسّر

بعضه وقد استعرضوه بعد فهمه بتلك الذرائع، فوجدوه يُعرِّف الإيمان بالصفات اللازمة والتي يتكون من مجموعها، فيقول: (**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا**) الآية ويقول: (**إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربّهم يتوكّلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً**). ويقول: (قد أفلح المؤمنون) إلى آخرها. ويقول: (**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**) إلى آخرها. ويقول: (**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**) إلى آخرها. ويقول غيرها من الآيات الجامعة لشعب الإيمان وخصاله وصفاته الذاتية، ثم وجدوه لا يذكر الإيمان في المعارض المختلفة إلا مقروناً بالعمل الصالح ففهموا من القرآن ما هو الإيمان وما هي الأعمال الصالحة، فآمنوا وعملوا الصالحات فكان إيمانهم أكمل إيمان بالعمل والكسب لا بشيء آخر من الخوارق والاختصاصات. وعلى هذا النحو فهموا العبادة وتوحيد الله وكمالاته المطلقة والرسل ووظائفهم والملائكة إلخ...

أما الخلف فقد عدلوا عن هذا كله منذ صاروا يفهمون الإيمان من القواعد التعليمية وفقدوا الذوق والاسترشاد بالسنة.

إن هذه القواعد الجافة التي لا صلة بينها وبين النفس إنما تنفع في الصناعات الدنيوية، أما في الدين فإنها لا تغني غناء وقد أفسدته منذ أصارها الناس عمدة في فهمه حتى ضعف إيمانهم وضعفت تبعًا له إرادتهم وأخلاقهم، وكيف يفلح من يعدل في تفهم الإيمان عن الآيات المتقدمة إلى

قولهم إن الإيمان هو التصديق وإن النطق شرط أو شطر فيه وإن النسبة بين الإيمان والإسلام كذا إلى آخر القائمة؟ وكيف يكون مؤمنًا (حقًا) من يبني إيمانه على هذا الجرف الهاري؟

إن هذا موضوع واسع الجنبات وهو يتصل بباب أمراض المسلمين وأسبابها ولا تتسع هذه الكلمة لبعض القول فيه فكيف باستيعابه.

تدبر القرآن واتباعه هما فرق ما بين أول الأمّة وآخرها وإنه لفرق هائل، فعدم التدبر أفقدنا العلم، وعدم الاتباع أفقدنا العمل. وإننا لا ننتعش من هذه الكبوة إلا بالرجوع إلى فهم القرآن واتباعه. ولا نفلح حتى نؤمن ونعمل الصالحات. **(فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون)**.

إن هذه النهضة المباركة المنتشرة اليوم في الأقطار الإسلامية بشير خير بقرب رجوع المسلمين إلى هذه الهداية، لأن هذه النهضة بنيت أصولها على الدعوة إلى كتاب اللّه وتفهمه والعمل به. وقد كان من بواكير ثمار هذه النهضة في باب التأليف تفسير الإمام النقاد محمد الألوسي على ما فيه من تشدد في المذهبية. وتفسير الأمير صديق حسن خان، ثم جاء إمام النهضة بلا منازع وفارس الحلبة بلا مدافع الأستاذ الإمام محمد عبده فجلا بدروسه في تفسير كتاب اللّه عن حقائقه التي حام حولها من سبقه ولم يقع عليها. وكانت تلك الدروس آية على أن القرآن لا يفسر إلا بلسانين لسان العرب ولسان الزمان... وبه وبشيخه جمال الدين، استحكمت هذه النهضة واستمر مريرها. ثم جاء الشيخ محمد رشيد رضا جاريًا على ذلك النهج الذي نهجه محمد عبده في تفسير القرآن. كما جاء شارحا لآرائه وحكمته وفلسفته في الدين

والأخلاق والاجتماع. ثم جاء أخونا وصديقنا الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قائد تلك النهضة بالجزائر بتفسيره لكلام اللّه على تلك الطريقة وهو ممن لا يقصر عمن ذكرناهم في استكمال وسائلها من ملكة بيانية راسخة وسعة اطلاع على السنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها وإحاطة وباع مديد في علم الاجتماع البشري وعوارضه. وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع ومستجدات العمران يمد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير. وقلم كاتب –لا تفل له شباة–.

بارك اللّه في عمر الأستاذ فأتمّ تفسير كتاب اللّه ببيانه المشرق في خمس وعشرين سنةً من غير أن تختل أعماله العلمية الكثيرة ولا أعماله المستغرقة لدقائقه في سبيل هذه النهضة. وعرفت الأمّة الجزائرية قيمة ما أتمّ اللّه على يد الأستاذ فاحتفلت بهذا الختم كأعظم ما تحتفل أمّة ناهضة بأثر ناجح من آثار جهودها. وكان من الإحسان في هذا العمل العظيم ومن الإحسان للنهضة أن تسجل من هذا الاحتفال صورة منبهة على حقيقته، فصدر هذا العدد من «الشهاب» وهو لسان حال هذه النهضة، خاصًا بهذه المنقبة مخلداً لهذا الأثر، مسجلاً لبعض أوصافه وما قيل فيه.

ونحن بما لنا من الصلة الوثيقة بهذه النهضة ومن العمل النزر فيها نغتبط بهذه الخطوة السديدة وهذه المرحلة الجديدة التي تمّت بختم التفسير، ونرجو أن تكون في المرحلة الثانية أوسع مدى في الهداية وأكثر حظًا من التوفيق. ونهنّئ أخانا الأستاذ بما خصّه اللّه به من التوفيق في خدمة دينه ولغته وأمته.

3- كلمة في الاحتفالات وتصوير وصفي للاحتفال العظيم بختم القرآن العظيم(*)

الاحتفالات -بنظامها العصري- مجامع مفيدة من جميع جهاتها، لجميع روّادها. فهي بالنظر العام أدوات تعارف وتواصل ربط بين من لم تتهيأ لهم أسباب الاجتماع إلا في هذه الاحتفالات. وأسواق بضائعها الخطب والمراجعات القولية، وأرباحها الإيجابية آداب الاجتماع. وتلاقح الأفكار، واقتباس الكلمات واستيقاظ الهمم. واستعجال الآراء وانتشال التفكير من المستوى العامي الغث وصقل الأذهان، وتمكّن مجموعة من الملكات منها ملكة استعراض الآراء وملكة استجماع الخواطر، وأرباحها السلبية زوال الدهشة من لقاء الناس والاستيحاش منهم وغشية الاضطراب والارتباك. والبرء من آفة العي والحصر. وهي -لعمرك- نقائص حظ مجتمعنا -على الخصوص- منها عظيم.

وهي للدعاة ميادين دعاية يجدون فيها متسعًا رحبًا لنشر آرائهم بدون كلفة وبدون نفقة لأنها تحشد لهم طبقات من الناس ما كانوا ليستطيعوا جمعها.

وهي للمرشدين والمربّين الاجتماعيين فرص لبث الإرشاد بين الجمهور وتوجيهه للخير والمنفعة.

(*) «الشهاب»، الجزء الرابع، المجلد الرابع عشر، جوان – جويلية 1938، ص 168.

وهي للخطباء وأصحاب الّلسن ذرائع تمرين وارتياض على الكلام وتوسّع في وجوه القول وتمرّس بمكافحة الجموع، وهذه كلها فوائد لا يُستهان بها في باب التربية.

إن هذه الاحتفالات بمثابة دروس تطبيقية معظم تلامذتها من الدهماء الذين حرموا المدارس والدروس النظامية. وإذا كان هذا الصنف كثيراً في الأمم فمن الرحمة به وحسن الرعية له ومن الحكمة في استصلاحه وتربيته أن يوسّع له في هذه الاحتفالات ويكثر له منها وأن تبتكر له المناسبات لإقامتها.

وإن أكثر الناس استقادة من الاحتفالات وأبلغهم إفادة فيها وأثقلهم عهداً في توجيهها إلى الصالح النافع أو إلى الفاسد الضار، هم الخطباء؛ فعليهم وحدهم يتوقف إصلاحها أو إفسادها، وليست خصوصية الأسباب ولا تحديد النظم بمانعة للخطباء من بلوغ غرضهم ما دام باب المناسبات والاستطرادات واسعًا رحب الجوانب، وما دام وجود الخطباء في الاحتفال جزءاً ضروريًا بحيث لو خلا من عنصرهم -في هذا العصر- احتفال لكان زردة متمدنة مظلومة في اسمها، فوجودهم هو الفارق الجوهري بين مسمّى (احتفال) ومسمّى (زردة).

• • •

تتفاوت الاحتفالات بتفاوتها في سمو المعاني التي تقام لأجلها، فبقدر سمو السبب وعموميته تكون قيمة الاحتفال، ثم تنزل تلك القيمة وترخص كلما تفه السبب أو خصّ حتى تصل إلى درجة الساقط الذي لا وزن له. ولا يدخل في هذا الباب إلا بضرب من التوسع والتساهل. فأسمى هذه الأسباب ما يذكر الجمهور بأمجاده التاريخية ومفاخره القومية وفيه نخوة أماتها الضيم، وفحولة قضى عليها التأنث، وذكرى أخنت عليها الغفلة والنسيان، وأصالة

خَبَّثَتْها الأعراق الدسيسة، وعزيمة أطفأتها طباع الضعف والفسولة، وأريحية غطى عليها اللؤم المخزي والشح المطاع، وشواعر خدرتها تهدئة الدخيل وزمزمة الحاوي وهينمة الواغل...

ثم ما يجلو عليه حقيقة دينية أو علمية غشيتها الأوهام والخرافات. ثم ما يحقق له مصلحة في الحياة كانت مجهولة أو حقًا فيها كان ضائعًا. ثم ما يكشف له عن وجوه الإصلاح الاجتماعي ليعلموا له، وعن وجوه الفساد فيه ليتقوه.

ثم... لا ثم...

هذا من من جهة الأسباب والبواعث. فأما من جهة الأشكال والصور فأعلى ما فيها أن ينساق إليها الجمهور بسائق وجداني، وأخسّ ما فيها أن يساق إليها سوقًا، أو أن يخدع فيها عن وجدانه بالمرغبات الخادعة.

• • •

لكل أمّة أسباب طارئة وبواعث تاريخية تدعوها إلى إقامة الاحتفالات. وقد تنبهت الأمم الحية إلى ما فيها من الفوائد فجعلت الاحتفال بها جزءًا من حياتها ومادة من قوانينها الاجتماعية. وإن الأمّة الإسلامية لأغنى الأمم من هذه البواعث التاريخية وكلها من ذلك الطراز العالي الذي أشرنا إليه. ومعظمها بواعث دورية يفضي الباعث منها إلى باعث فلا تفتأ الأمّة مستعرضة ماضيها كله ولا تزال في غمرة من المنبهات المنعشة.

عندنا معشر المسلمين ليلة الميلاد النبوي وعندنا يوم الهجرة ورأس السنة الهجرية ويوم بدر ويوم أحد ويوم فتح مكة وغير ذلك من الأحداث التي وقعت في عهد النبوّة، ولكل واحد من هذه الأحداث مغزى سام وأثر بالغ في

تاريخنا، وهلم إلى ما بعد من الوقائع الشهيرة الفاصلة حتى تنتهي إلى فتح صقلية ومواقع الحروب الصليبية وفتح القسطنطينية، وهلم ما يخصنا معشر الأفارقة كبناء القيروان واستواء طارق على الجبل، وهلم ما تقتضيه المناسبات في بعض الأوقات كفتح خيبر ودخول عمر لبيت المقدس. وتعال إلى القوّاد والفاتحين والأجواد والعلماء والحكماء والفلاسفة والشعراء –ولا تعد من الدر إلا كباره– تجد ما زخرفه التاريخ وفاضت به العصور. ومع هذه المفاخر فقلّ أن تجد قطراً إسلامياً سنّ أهله سنّة صالحة في إحياء هذه الذكريات وإحياء الأمّة بها، إلا في القليل المشوّه الذي لا ينقع غلة ولا يصيب مزمى.

إن غفلتنا عن إحياء ذكريات أمجادنا التاريخية هي التي أزهقت في الأمم الإسلامية روح التأسّي فأفقرتها من الرجال وجعلت تاريخها الحديث خلواً من المثل العليا، حتى اندسّ هذا العرق الخبيث في آدابنا فترانا إذا التمسنا مثلاً في الجود، طوينا تاريخ الإسلام كله كأنه صفحة مغسولة، وجئنا من العصر الجاهلي بحاتم وقل مثل ذلك في عنترة والسموأل. فإذا قصرنا الخطو وقاربنا النجعة، وقفنا عند العصر الأول للإسلام. فهل خلت العصور التي بعدهم من مثل كاملة ومن مفاخر خالدة؟ لا. فقد تأسّى عصر بعصر وجيل بجيل، فجاءت عصور زاهرة وأجيال عامرة. فلما جهل التاريخ وانقطعت العلائق الواصلة بين عصوره، ضعفت روح التأسّي ثم تلاشت، وصرنا إلى هذا الفقر الشائن في المثل، وهذا الخواء المزري في التاريخ.

وقد زادتنا أضاليل الغاشين إمعانًا في الغفلة وإغراقًا في الركود. ففقهاء هذه العصور الجرداء يعدّون التاريخ علماً لا ينفع وجهالة لا تضرّ، والأجانب يعيّروننا بأننا أمّة تعيش في الماضي ويغشّون سفهاءنا في معرض التنصح

بأمثال هذه الكلمات ليًا بألسنتهم وتزهيداً في هذا الماضي زيادة على زهدنا فيه. وهم يعلمون أننا نعيش بلا حاضر. ويوجسون خيفة من أن يلمّ بنا طيف من ذلك الماضي الزاهر فنبني عليه حاضراً من جنسه أكمل منه.

ألا إنهم -من إفكهم- ليقولون: دعوا ماضيكم، فهل تركوا هم ماضيهم؟ إننا نراهم أحرص الناس على الاعتداد به والاستمداد منه والامتداد معه إلى عصور الخرافات والأساطير.

وما لنا وللغاش والناصح! إن لنا لماضيًا عبقريًا حسدتنا عليه الأمم التوالي، بعد أن جرضت به الأمم الخوالي. فمن مصلحتنا وحدنا أن نحيي ذكرياته في نفوسنا وأن نستمد منه قوة لأرواحنا وأن نربّي ناشئتنا على احتذاء مثله وعبقرياته. وإن إقامة الاحتفالات لتلك البواعث لطريق قاصد إلى ما نريد من ذلك.

• • •

سنت مجلة «الرسالة» الغرّاء نوعًا من الاحتفاء ببعض هذه البواعث، فجرت على إصدار عدد ممتاز للسنة الهجرية، وجلا كتّابها الكرام علينا عبراً كانت مخبوءة، وأثاروا في نفوسنا ذكريات كانت منسية. ورأينا من بركات هذه السنّة التي سنّها الأستاذ الزيّات -أمتع اللّه به- أن أقلامًا عربية متينة كانت متنكرة للإسلام وتاريخه تعفّر وجههما الصبوح بالغبار وتمجّ في مشرعهما الصافي السمام المنقع، وقد أصبحت تفتن في إباة حقائقهما وإظهار معالمهما بما أوتيت من قوة بيان ونصاعة برهان، ثم كتب الأستاذ صاحب الرسالة مرّة أو مرّتين -لا أذكر- في ذكرى يوم بدر، وكأنه -حفظه اللّه- يريد بهذا الصنيع أن يجعله منبهة للأمم الإسلامية إلى ما وراءه من خير، ولكن لم يكن على منهاجه إلا القليل.

ومنذ سنوات احتفلت عصابة من أحياء القلوب والشواعر بموقعة حطين، وهي من المواقع الفاصلة في الحروب الصليبية ومن الصفحات المشرقة في تاريخ صلاح الدين، وتكلم فيها جماعة من رجال الإسلام، ونشرت كلماتهم في كتيّب وقرأناه، فإذا هو احتفال يثير رواكد الهمم، ويكاد ينفخ الحياة في الرمم، ولقد -واللّه- أشجاني وأبكاني، وما زال يشجيني ويبكيني كلما ذكرته، قول صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلي في أنشودة حطين:

لكل أمر حيـــــن ... خل البكـــا حينـــا
هاتي صـــلاح الديـــن ... ثانيـــــة فينــــا
الشـــامـخ العرنيـن ... عـــزا وتمكينــــا
وجددي حطيـــــن ... أو شبـــه حطيـــنا

لك اللّه أيها الشاعر. وهل يأتيك بصلاح الدين إلا أمّتك؟ وهل يجدّد لك حطين إلا قومك الذين بدأوها؟ ولكن، هل أمّتك مستعدة لأن تأتيك بصلاح الدين مرّة أخرى؟ وهل قومك أهل لأن يجدّدوا موقعة حطين وفيهم أمثال عبد اللّه...؟

قد خلـت الآجـــام ... من رابـــض فيـــها
أحي في أمتّك وقومك خلق التأسّي بمن قلت فيـه:
فصـــاح: لا عـــدوان ... لا بغـــي لا إرهـــاق
قد فـرض الإيمـــان ... مكـــارم الأخـــلاق

وأنا الضمين بأنهما يأتيانك بجمع من صلاح الدين، ويجدّدان لك حطين، وأشباه حطين.

لا نريد للمسلمين أن يعكفوا على تلك الاحتفالات المولدية الشائعة التي يقتصر فيها على تلاوة القصص المشوّهة، فإن ذلك الطراز لا يتفق مع شرف الذكرى وجلالها. وإن القصص المولدية الحشوية، والخطب المنبرية الرائجة هما سبب تنويم هذه الأمّة وأصل بلائها.

ولا أن نعكف على ذلك النوع الشائع في مصر كمولدي البدوي والرفاعي وغيرهما، فإن ذلك النوع -زيادة على إفساده للدين والأخلاق- لا يثير في النفوس ذكريات ماجدة ولا معاني شريفة وإنما يمكّن فيها للتخريف والدجل.

ولا ذلك النوع الشائع في الأوساط الشيعية من احتفالهم يوم عاشوراء بذكرى مقتل الحسين -عليه السلام- فإنه فضلاً عما يقع فيه من المنكرات المخجلة، لا يثير إلا الحفائظ والإحن ولا يثمر إلا توسيع شقة الخلاف، ولقد حضرت احتفالهم مرّة واحدة بدمشق في تربة تُعرف بأرسلان، فعجبت كيف تصدر تلك الشناعات من مسلم، وعلمت لأول مرّة: إلى أي حدّ ينتهي التعصّب والغلوّ، ثم ذاكرت عالم الشيعة بدمشق الشيخ عبد المحسن العاملي وهو عالم فاضل أديب معتدل في ذلك، فأنكر ما أنكرت بالقول، واعتذر عن الإنكار بما فوق ذلك بما يعتذر به علماء الدين في كل مكان.

لا نرضى للمسلمين بهذا الطراز البالي من الاحتفالات التي ذكرنا بعض أنواعها، فقد عكفوا عليها قرونًا، فما زادتهم إلا خبالاً وانحطاطًا، وإنما نريد منهم محوها واستبدالها بما هو خير.

وقد تتابع السواد الأعظم من إخواننا المصريين في هذا النوع السخيف مثل ما تتابع الفريق المثقف منهم في تقليد الغربيين في هذا الباب بلا تحفّظ

ولا استمساك، فبينما سواد الأمّة وعديدها الأكثر، عاكف على الأضرحة، يقيم حولها احتفالات الموالد ويرجو منها الإمداد وعلماء الدين يمدّونهم في الغيّ بسكوتهم، ومشيخة الأزهر تزكي أعمالهم بتقبيل شيخها لمقود جمل المحمل. نرى الطرف الآخر يتهالك على تقليد الغربيين في ولائمهم واحتفالاتهم السخيفة بالتوافه والسفاسف ويستهتر في هذا التقليد حتى تطغى احتفالات الغرب الدينية والقومية حتى على المواسم الشرقية الدينية، وهذه جرائدهم ومجلاتهم تشهد -في ضجر وعتب أو في رضى وإعتاب- بأن هذه الطائفة، وهم عمار الحواضر يحيون ليلة الميلاد المسيحي وعيد رأس السنة المسيحية ولا يأبهون لعيد الفطر ولعيد الأضحى.

ولعمري إن هذا لهو الاستعمار الروحي الذي لا يُعدّ الاستعمار المادي معه شيئًا مذكورًا!

أو لم يكن لهم آية أن شوقي -رحمه الله- يقول على لسان كليوباطرة ملكة مصر، تخاطب خدم قصرها:

لا تسيروا على ولائم روما سرفًا في الفسوق واستهتارا
مصر إن أولمت سمت بالأغاني درجات وأسمت الأشعارا

فهذه كليوباطرة وهي كما يقولون: أنثى أفنت العمر في الهوى. أنفت (أو أنف لها شوقي) أن تسير ولائمها على ولائم روما. فلئن كان هذا الكلام مما ألم معناه بخاطر كليوباطرة وجرى لفظه على لسانها فهي أصدق وطنية وأنبل نزعة من هؤلاء المقلّدين، وإن كان إنما تخيّلها شوقي كذلك فما أراد إلا عظة هؤلاء وما عنى إلا إياهم وما وجّه الخطّاب إلا إليهم، وليس شيء من ذلك بمستنكر على شوقي.

ويا ليت إخواننا هؤلاء استبدلوا غرباً بغرب فقلّدونا نحن –مادام التقليد مبلغ جهدهم– في كثير من هذه المعاني التي يقلّدون فيها الغربيين، ألسنا مغاربة؟ ألسنا أحق باسم الغرب بالنسبة إلى مصر؟ وإنما أوروبا شمالي مصر. وقد شرع لهم حافظ هذه التسمية في قوله:

وَدَعونا نشم ريح الشمال

أم يقولون: إننا برابرة ومتوحشون: فنعم وكرامة عين. ولكننا مع ذلك شداد في الاستمساك بحبال الشرقية في كثير من مناحي الحياة. ولقد صاحبنا الاستعمار أكثر من قرن فما استطاع لنا هضماً.

خالفنا الاتجاه قليلاً ولمسنا ببعض العتب علاقة عزيزة علينا، وعزيزاً علينا أن نراها مسرفة في التقليد، غالية في المتابعة على غير هدى على حين نأتم بها ونعدها لإمامة الشرق كله، فليهنأ إخواننا أننا تلامذتهم، ولكن في غير ما هم فيه تلامذة الغرب...

• • •

لم تعرف الجزائر في ماضيها من الاحتفالات إلا تلك الصور العادية الساذجة في العيدين الدينيين، وإلا الزرد الموسمية في بعض الجهات، وإلا نوعًا آخر هو أقرب إلى الاحتفال المنظّم لو خلا من المحظورات الدينية. وحلا بالمشارب القومية والفوائد الاجتماعية. والعامة تُطلق على هذا النوع اسم «الأركاب» وهم يعنون جمع ركب بسكون الكاف كأركاب خالد بن سنان بصحراء بسكرة، وركب عامر لقبر عطية قرب قلعة بني حماد، وركب قسنطينة لقبر ابن عبد الرحمن بالجزائر، وركب البليدة لقبر الشيخ أبي مدين بتلمسان، وكلها من شدّ الرحال غير المشروع، وكلها قريبة من النوع الذي نعيناه على المصريين وإن كانت أقلّ منه فساداً أو إفساداً.

وعرفت الحواضر الجزائرية شبه احتفال بالمولد النبوي، يقتصر فيه على التجمير والتقصير وتلاوة قصة من القصص الحشوية الشائعة. ولقد حضرت -منذ سنوات- حفلة مولدية من هذا النوع بحاضرة الجزائر، وسمعت عالماً أزهريًّا يقرأ على الناس قصّة مولدية -لعلها مولدية المناوي- فسمعت من بعض ما كان يقول قوله: إن النبي ﷺ كان يرى من أمام كما يرى من خلف بعينين خلقهما اللّه في قفاه... وكان بجنبي فقيه مقرئ، خفيف الروح، سلفي النزعة، فتغامزنا بالإنكار ولم نستطع جهرة إذ كان ذلك قبل انتشار الحركة الإصلاحية، ثم أسر إليّ على سبيل الدعابة قوله: أبى اللّه إلا أن نكون أسبق منكم

لكل شيء فعندنا من هذه (الماركة) من العلماء من يقول ويكتب: إن النبي ﷺ لم يولد من السبيل المعتاد...

ولبثت الجزائر محرومة من هذا النوع المفيد الذي يغرس المعاني السامية في النفوس بأسبابه وبواعثه، ويزرع المبادئ العالية والمعارف والآداب في العقول بما يقال فيه إلى أن كان عهدها الأخير وكانت نهضتها العلمية الدينية. فلأوائل هذه النهضة شعرت بما للاحتفالات من أثر صالح في النهضات، فالتفتت إليها وجعلتها إحدى ذرائعها لتعضيد الأعمال والمشاريع ونشر المبادئ الصالحة وبث الأفكار النافعة، وترقت بها مع الزمن حيث النظام واختيار المناسبات حتى أصبحت تنافس أرقى ما عُرف من نوعها عند الأمم الأخرى.

• • •

لعل أروع احتفال شهدته الجزائر في عهدها هذا هو الاحتفال بفتح مدرسة «دار الحديث» بتلمسان في أواخر شهر سبتمبر من السنة الخالية، فقد كان بدعاً من الاحتفالات في نظامه. وفي ضخامة العمل الباعث عليه، وفي جلال المناسبة والذكرى، وفي احتشاد الأمّة له، وفي علوّ الطبقة التي شهدته وتكلّمت فيه من العلماء والشعراء، وقد وصفته الجرائد في حينه، وإنما جلبته هنا مناسبة الحديث عن الاحتفالات.

ثم جاء الاحتفال بختم الأستاذعبد الحميد بن باديس لدروس التفسير بالجامع الأخضر بقسنطينة -وهو الذي ألهمنا كتابة هذه الكلمة- فكان شاهداً لما ذكرناه قريباً من تطور هذه الأمّة في هذه الناحية، ودليلاً على أن نظام الاحتفالات بلغ في هذا القطر كماله، وعلى أن روح التأسّي في الصالحات حييت في هذه الأمّة وانتعشت، وأنها أصبحت تهتبل الفرص المواتية فتحسن الاختيار.

أذكر أننا كنا في جماعة من الرفقاء الأوفياء، تذاكرنا مرّة في إقامة حفلة تكريم لرفيقنا الأستاذ بن باديس تنويهاً ببعض حقه على العلم وشكراً لأعماله الجليلة وآثاره الحميدة في التعليم بهذا الوطن، واعترافًا بكونه واضع أسس النهضة. وإنصافا لكونه أسبقنا إلى التعليم وأشدّنا اضطلاعًا به وأكثرنا إنتاجاً وتخريجاً فيه... وذهبنا في تقدير الفوائد التي تُجنى من هذا الاحتفال مذاهب لا غلوّ فيها ولا إسراف. ثم فاتحنا أخانا الأستاذ بهذه الفكرة، فكان الجواب قوله: دعوا هذا حتى تختم دروس التفسير -وبيننا يومئذ وبين الختم سنوات- كأنه يرى أن عمله في التفسير هو أجلّ أعماله في التعليم، وأنه بإتمامه لهذا العمل يستكمل مزية الاستحقاق للتكريم والإجلال من أمّته إذ

يكون قدّم لها عملاً تامًا ناضجًا وصورة كاملة من مجهوداته زيادة على ما خرج لها من رجال... كأنه -حفظه الله- كان معلّق البال بهذا العمل ويخشى أن تقطعه قواطع الدّهر.

وأراد اللّه، فحقّق للأستاذ أمنيته من ختم التفسير وللأمّة رجاءها في تسجيل هذه المفخرة للجزائر، ولأنصار السلفية غرضهم من تثبيت أركانها بمدارسة كتاب اللّه كاملاً. وبدت مَخايِل الختم من أواخر السنة الخالية فكثر الحديث في الأسمار وفي المنتديات عن الاحتفال وصوّرت منه الخواطر احتفالاً ملء الأمل. وكذلك كان. والحمد للّه.

تألّفت لجنة تنظيم بمركز الاحتفال «قسنطينة» وأعدّت للاحتفال برنامجًا محيطًا محكمًا وجعلت شعاره كله (القرآن) فالوفود وفود القرآن والضيوف ضيوف القرآن، وأذاعت توقيت الاحتفال باليومين الرابع والخامس من شهر ربيع الثاني، ثم عدلت عنهما إلى الثاني عشر والثالث عشر منه لعوارض قاهرة لا يملك معها الخيار. وأضرّ تأخير ذلك الأسبوع بطوائف من الأمّة كانت تسابق بالاحتفال أشغال الصيف وتكاليف الفلاحة، وهي تكاليف لا يملك معها الخيار أيضا..

انهالت الوفود القريبة الدار على قسنطينة يوم الجمعة وتلاحقت الأمداد يوم السبت، وشعر الناس شعوراً عامًا أن الجامع الأخضر لا يسع الوافدين إذا انهال سيلهم، وأن محلاً ما من المحلات العامة لا يسعهم أيضًا. فألهموا من غير تواطؤ، العمل بقاعدة التمثيل فأرسلت كل بلدة وفداً محدود العدد يمثّلها، فلم تبق بلدة من عمالة قسنطينة كبيرة أو صغيرة إلا ومثّلها وفد في مهرجان القرآن، فرأينا هناك وفود البلدان الساحلية من بجاية إلى الحدود

التونسية ووفود مناطق التلول من سطيف إلى سوق أهراس ووفود المناطق الصحراوية من بسكرة إلى سوف. وتكاملت عقود هذه الوفود بوفد عاصمة الجزائر الضخم المؤلّف من مائة وثلاثين شخصاً، ثم وفد تلمسان وهو أقصى الوفود داراً عن قسنطينة، فبينهما ما يزيد عن ألف ميل، ولكن جاذبية القرآن هوّنت عليه النصب واللغوب.

رأى الوفد التلمساني أن يقطع الطريق من الجزائر إلى قسنطينة في سيارة أوتوبيس ذات أربعين مقعداً ليجمع بين الفائدة والنزهة وعمل بالاتفاق مع الوفد الجزائري على أن يخرج الوفدان من الجزائر معاً ويدخلا قسنطينة مساء السبت معاً.

وبلغ أهالي سطيف أن الوفدين يمرّان ببلدتهم فأبى عليهم كرمهم إلا أن يقيموا لهما حفلة شاي فاخرة. وأرسلوا للوفدين استدعاءً مع رسول خاص، مبالغة منهم في البر والاحتفاء. وخرج الوفدان من العاصمة على الساعة السادسة من صباح السبت في قطار من السيارات الضخمة يتكوّن منها منظر ساحر خلاّب ووصلوا سطيف على الثالثة بعد الزوال، فتلقّاهم إخوانهم السطيفيون على بضعة أميال من المدينة بباقات الزهر وطيب التحية، واجتمع الجميع على مائدة الشاي الحافلة.

ثم استقلّ قسم من وفد سطيف سيارة ذات خمسين مقعداً، وخرج الجميع آمّين قسنطينة، وقد زاد الموكب كمالاً وجمالاً.

خرج أعضاء لجنة الاحتفال من قسنطينة في بضع سيارات للقاء موكب الوفود على خمسة وعشرين ميلاً إبلاغاً في المبرّة، فتهلّلت الأسارير عند اللقاء وطفحت الوجوه بالبشر وانطلقت الألسنة بالتحيات المباركات وتصافحت

القلوب قبل أن تتصافح الأيدي وامتزج شماس الأصيل بشعاع الوجوه المستبشرة، فكان منظرًا سحريًا أخّاذًا لا يستقل بوصفه إلا شاعر، ولست بشاعر. ثم انتظمت السيارات موكبًا بديعًا وزحفت إلى قسنطينة فدخلتها بعد المغرب وليس وصف مشهد دخول هذا الموكب إلى قسنطينة وانغماس الضيوف والمضيفين في غمرة من نشوة الفرح البالغ إلى حدّ الذهول بالذي يسعه بياني وإن وسعه إدراكي وعياني.

اجتمعت وفود الغرب بوفود الشرق في مدرسة التربية والتعليم التي أعدّت مكاتبها وطبقاتها وقاعاتها لهم أحسن إعداد. وبعد أداء فريضة العشاء انصرفوا إلى موائد المضيفين على تقسيم عجيب ومزج غريب يرجع الفضل والشكر فيه إلى لجنة الاحتفال.

وقد تبارى كرام القسنطينيين -أحسن اللّه إليهم- في إكرام الوافدين وهزّتهم الأريحية هزّةً بعد العهد بمثلها، وتجلّت الضيافة العربية الباذخة في أجلى صورها، يزينها نظام دقيق دفع هجنة الفوضى ووصمة الاختلال التي تصاحب الاحتشاد والكثرة. فلم يتخلف مضيف عن ميعاد، ولم تختل لضيف وجبة، ولم يفترق للمجتمعين في منزل شمل. وتضاعفت الوفود صباح الأحد، فتضاعفت الحفاوة والبشر وتجلّى الاستعداد الهائل واتسعت الصدور فاتسعت المنازل وتنوّعت صنوف البر حتى وسعت تلك الوفود الزاخرة سكنًا مرفهًا وأكلاً مترفًا في أيام الاحتفال ولياليها. وارتفعت الكلف بين كل نزيل وأبي مثواه حتى لتحسبهم إخوةً رحم أو عشراء دهر.

ثم تلطفوا فخصّوا الوفود التي لم تسبق لها زيارة قسنطينة، بنوع من التكريم وهو الطواف بهم في أوقات الفراغ على معالمها وقناطرها العجيبة

وواديها المدهش ومناظرها الساحرة وغمروهم بفيض من الرقة واللطف أسرت ألبابهم وانطقتهم ببليغ الشكر فانقلبوا إلى أهلهم يحملون الإعجاب والإكبار ويضمرون المحبة الصادقة والولاء المحض.

هذه هي الاجتماعات التي كنا ننشدها فلا نجدها، هذه الاجتماعات التي تثمر التعرّف الحقيقي وتجمع أفراد الأمّة على الدين والخير والعلم. وقد زادها إخواننا القسنطينيون تمكينًا وشرعوا من آداب الضيافة مناهج سيحتذيها المترسمون ويذكرونها لهم بالجميل.

وما ظنّ الذين يفترون علينا الكذب ويتقوّلون علينا الأقاويل؟ أفي مثل هذا الاحتفال من أعمالنا شائبة نقد أو رائحة إضرار بأحد؟

• • •

كان من المتوقع -على بعد- أن تسمح الإدارة بوقوع الختم في الجامع الأعظم لاتساعه لأضعاف ما يتسع له الجامع الأخضر -وقد طلب منها ذلك واتخذت وسائله- فأبت، فما كان من لجنة الاحتفال وكرام القسنطينيين إلا أن قرّروا أن يفسحوا في المجالس للوافدين وأن لا يزاحموهم في مقاعد الجامع الأخضر ساعة الدرس، ونفّذوا هذه الخطة على أن تكون مكافأتهم من الأستاذ إعادة درس الختم في ليلة أخرى بعد انحسار الوفود عن قسنطينة.

وما كادت تشرق شمس يوم الأحد حتى اكتظّ الجامع الأخضر بالوفود، فلم يبق فيه متنفس وشمل الخشوع تلك الصفوف المتراصّة حتى لا حركة ولا ضوضاء. وتجلّى جلال كلام اللّه في بيت اللّه فكان مشهداً يستنزل الرحمات، ويتكفّل باستجابة الدعوات. وصعد الأستاذ المفسّر منبر الدرس فشخصت العيون وخفتت الأنفاس واستهلّ بتلاوة المعوذتين. وشرع في تفسيرهما بما

هو معهود منه، فلا يحتاج إلى نعت ولا إلى إطراء (وقد نشر ملخص الدرس في هذا العدد).

استغرق الدرس ما يقرب من ساعة ونصف أخذ الناس فيها على نفوسهم، وجلّلتهم سحابة من الخشية والسكينة. وكذلك المؤمنون الذين يخشون ربّهم بالغيب تقشعّر جلودهم عند سماع كلامه، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله.

وختم الأستاذ المفسّر الدرس بأدعية قرآنية وابتهالات مأثورة، ثم طلب من الحاضرين أن يسألوا اللّه الرحمة والمغفرة لأخيهم حسين باي، مؤسّس الجامع الأخضر ومحبسه في سبيل العلم وإقام الصلاة وذكر اللّه كما هو منقوش على رخامة في المسجد. وذكر أن من علامات إخلاص هذا الرجل في عمله وحسن نيّته أن يسّر اللّه ختم تفسير كلامه من أوله إلى آخره في مدة خمسة وعشرين عامًا بهذا المسجد، فانطلقت الألسنة بالدعاء والترحّم وافترقوا على مثل ما اجتمعوا عليه بقلوب خاشعة ونفوس متراحمة وألسنة رطبة بحمد اللّه وشكره على ما وفّق إليه من الخير وأعان.

وكان هذا اليوم مقصوراً على درس التفسير، حرصًا على كلام اللّه أن يستقل تأثيره بالنفوس وأسره للأفئدة، وعلى عظاته أن تتصل بشغف القلوب. وخصّ سائر اليوم لاستراحة الوافدين ووقوفهم على معالم المدينة ومناظرها بعد أن أذنت لجنة الاحتفال فيهم باحتفالات الغد وأعماله.

• • •

كان يوم الاثنين الموالي ليوم الختم موعدًا لإقامة حفلة تكريم للأستاذ المفسّر، وهي الحفلة التي سبقت الإشارة إليها في كلامنا. وكان لها حظ من

تصميمنا واعتزامنا، فسخّر اللّه أسبابها في هذا اليوم. وقد تلطفت لجنة الاحتفال فأسندت رئاستها إلى كاتب هذه السطور. وكان موضع الاحتفال قاعة «كليّة الشعب» الفسيحة.

أهطعت الوفود إلى كليّة الشعب قبل الساعة المقرّرة بساعات ولم يثنهم طول الانتظار ولا اكتظاظ القاعة حرصًا على ضمان المقاعد. وصنع القسنطينيون في هذا اليوم صنيعهم بالأمس، ففسحوا في مجالس كليّة الشعب كما فسحوا في الجامع الأخضر إكرامًا للوفود. وأبت الوفود إلا أن يكون لها شرك في معنى التكريم وأن يكون لأسمائها وبلدانها دخل في عداد المكرمين، فكان التكريم باسم العلماء زملاء الأستاذ وشركائه في العمل وباسم تلامذته وباسم هذه الوفود الحاشدة.

دقّت الساعة التاسعة، فتصدّرت هيئة جمعية العلماء سدّة القاعة واكتنفهم خطباء الحفلة وشعراؤها من تلامذة الأستاذ عن اليمين والشمال، وتقدّم رئيس الحفلة فقدم مقرئًا، أسمع الناس آيات من كلام اللّه، ثم فتح الرئيس باب الخطابة بارتجال كلمات. ثم قدم الخطباء على مراتبهم ثم الشعراء كذلك، وسيرى القارئ في آخر هذا العدد تلك الخطب والقصائد منشورة.

ولما كانت ساعات الاحتفال محدودة لا تتسع لجميع الخطباء ولا للقليل منهم، وكان التلامذة يمثّلون طبقات تمتد من أوائل النهضة إلى الآن، فقد رؤي حرصًا على الوقت والفائدة الاقتصار على من يمثّل تلك الطبقات، فتقدّم من يمثّل المتخرّجين في أوائل الحركة ثم من يمثّلون وسط الحركة واستفحالها، ثم من يمثّلون الطبقة المباشرة للتعليم في السنوات الأخيرة ثم من يمثّلون الطبقة النازحة إلى جامع الزيتونة ثم من يمثّل الطبقة المستقلّة

بالتعليم ثم من يمثّل تلاميذ التلاميذ. وبعد انتهاء الخطباء أعلن الرئيس استراحة ربع ساعة ثم الرجوع لسماع الشعراء.

ولما انتهى دور الخطباء والشعراء المقرّرين في منهاج الحفلة، وقف كاتب هذه السطور وارتجل خطابًا تغنّى فيه بجمال يوم القرآن وهو يوم الختم وبفوائد الخير التي سيعود بها على الأمّة الجزائرية. وقد حاول كاتبان من كتّاب الحفلة أن يلتقطاه عند الإلقاء ففاتهما منه الكثير. وتقدّم إليّ الحريصون على تخليد الحفلة كاملة أن أكتب ما علق بالذاكرة من ألفاظها ومعانيها، فكتبت ما يقرؤه القارئ في آخر الخطب. وأنا أبرأ من ادعاء محاذاته كما ألقي ارتجالاً في ألفاظه ومعانيه.

وبعد خطبة الرئيس، قام الأستاذ المحتفل به وارتجل خطبة ضافية نستعيض عن وصفها ها هنا بتلخيص معانيها ونشرها مع الخطب.

وانفضّ الاحتفال على الساعة الثانية إلا ربع بعد الزوال.

ومن لطائف الاتفاق أنه خطر لبعض الهيئات تقديم هدية تذكارية للأستاذ، ولم تعلم هيئة بما اعتزمت عليه الأخرى من نوع الهدية. فلما قدّمت الهدايا أمام الجمهور بعد انتهاء الخطابة كان تناسقها مفاجأة مدهشة، وهي محفظة كتب عربية ثمينة قدّمها وفد تلمسان، وقلم تحبير ثمين معه قلم رصاص قدّمتها هيئة جمعية التربية والتعليم، ونسخة من تفسير المنار قدّمتها هيئة جمعية العلماء، ونسخة من كتاب فتح الباري قدّمتها لجنة الاحتفال.

وكما كانت هذه الهدايا لطيفة في معناها التذكاري وفي رمزها العلمي وفي تناسقها، فقد كان سرور الأستاذ بها عظيمًا ووقعها في نفسه لطيفًا. ثم تمّ التناسق ولطف الذوق في حفلة المساء حين قدّم له تلامذة كشافة الرجاء مصباحًا كهربائيًا ظريفًا وقدّم له تلامذة الشباب الفني (زربية) سجادة صلاة.

• • •

وفي مساء الثلاثاء اشتركت ثلاث جمعيات علمية وفنية ورياضية في إقامة احتفال زاهر فخم في كليّة الشعب ابتهاجاً بضيوف القرآن.

أما الجمعيات: فهي جمعية التربية والتعليم وجمعية الشباب الفني الفنية وجمعية كشافة الرجاء الرياضية.

وأما الاحتفال فكان ناجحًا إلى أقصى حدود النجاح، مؤثّرًا إلى أبعد غايات التأثير، ظهرت فيه جمعية «الشباب الفني» - على حداثة عهدها- بمظهر الكفاءة والتجديد وسلامة الذوق والانسجام بين العازفين في المظهر وبين القطع في المخبر. وقد عزفوا قطعًا مشجية وترنم عليها التلامذة بأناشيد أشجى، حتى لقد رأيت كثيراً من عمار الصفوف الأمامية يبكون تأثراً، وأن أنس فلا أنس التلميذين اللذين أنشدا نشيد الترحيب على عزف (البيانو)، أنهما لطراز عال في رخمات الصوت وسلامة الأداء وجمال المنطق حفظهما اللّه وأقرّ بهما أعين الأمّة التي تعلّق رجاءها على أمثالهما.

إن التطويل في وصف هذه الحفلة يفضي إلى التقصير. وخلاصة القول فيها إنها كانت زاداً روحيًا قدّمته قسنطينة لوفودها بعد أن جاوزت الغاية فيما قدّمته لهم من أطايب الغذاء البدني. وإن سرّها وسحرها ليسا آتيين من الإطراب في العزف والإطراف في الأناشيد والإجادة في التمثيل والاتزان في الحركات، وإنما هما آتيان من شيء آخر وراء هذا كله، هو أمل الأمّة في أبنائها، كان صورة في الأذهان ومخيلة في الأدمغة، فرأت منه في هذه الليلة نموذجًا عمليًا يبشّر بتحققه كله، إن الزمان بأحداثه يستطيع أن يمحو من نفوس الوافدين كل ما رأوا وما سمعوا ولكنه لن يستطيع محو شيئين: درس القرآن وهذه الحفلة، وإن الوافدين ليستطيعون أن يقابلوا كل

إكرام لقوه من إخوانهم القسنطينيين بمثله أو بأحسن منه إلا إكرامهم بمثل هذه الحفلة.

وانفضّ هذا الاحتفال في نهاية الساعة الواحدة بعد نصف الليل بعد أن ختمه الأستاذ بن باديس بكلمة توديع.

• • •

من المظاهر التي شاهدها الناس كلهم في هذا الاحتفال بسوابقه ولواحقه، الهدوء الشامل، فلم تحدث أية حادثة ولو بسيطة على كثرة الاحتشاد وشدة الازدحام واختناق التعاريج في المدينة. وليس مرجع ذلك إلى التنظيم الآلي، ففي أدون من هذا الاحتفال نرى الفوضى تطغى على النظام، وطباع السوء لا تنهنه بالزجر وإنما مرجع ذلك إلى التنظيم النفسي وإلى أدب القرآن وقد ملك أزمة النفوس.

وإن هذا النوع من التربية الدينية هو الذي نريده للأمّة، وهي تربية كثيرة الفوائد قليلة التكاليف، وقد جرّبت فصحت. فهل من معين لنا على تثبيتها وتعميمها؟ وكأن إدارة الأمن العام بقسنطينة أدركت ذلك فلم نر منها مظاهر الاستعدادات الاستثنائية التي كنا نراها في مثل هذه المشاهد، وحسناً فعلت.

4- خطبة الأستاذ الإبراهيمي
التي ختم بها حفلة التكريم
للأستاذ ابن باديس في كليّة الشعب (*)

«ارتجل الأستاذ خطبته هذه فلم تصطد أقلامُ الكاتبين من ألفاظها إلا قليلاً مشوّشًا لم يحفظ ترابط المعاني بين أجزائها، فألحّ جماعة من السامعين المعجبين على الأستاذ أن يكتب ما علق بذاكرته من ألفاظها ويضيف إليها بقلمه ما يربط بين معانيها حرصًا على تخليدها في خطب الاحتفال، فحقّق رغبتهم بكتابة ما يراه القارئ منشوراً بعد هذا»:

أيها الملأ الكرام:

ما أشرقت شمس في الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالأمس، ولقد مضى بجلاله وروعته ولم ينطق في وصفه لسان بكلمة ولا اختلجت في نعته شفتان بحرف، لا زهداً فيه ولا عدم عرفان لحقّه ولا غبنًا لحقيقته، كيوم شوقي الذي قال فيه:

غبنت حقيقته وفات جمالهـــا باع الخيال العبقري الملهـــم

وإنما هو كلام الله وبيت الله عقدا الألسنة بجلالهما وحبسا النفوس على جمالهما، فجاء اليوم وجاءت كليّة الشعب يقضيان من ذلك حقًا غير مغفل.

إن يوم أمس من أيام الأُمَم، ولأيام الأمم غرر لوامع في تاريخها، ويد صناع في بناء مجدها، وصلة لا تنضب بتكوين أسباب بقائها وعظمتها، كما أنها شهود ناطقة بما في الأمّة من معاني العزّ والعظمة.

(*) «الشهاب» الجزء الرابع، المجلد الرابع عشر، جوان – جويلية 1938، ص 277.

لسنا نعني بأيام الأمم، هذه الأيام المتعاقبة التي يجمعها نسق الأسبوع وتُعرف بالأعلام وتمتاز بمراتبها العددية في الشهر، فقد تمرّ الآلاف منها على الأمم من غير أن تجمعهم جمعها على مأثرة تكسبهم عزًّا ومن غير أن توحّدهم آحادها على عمل يرفع لهم ذكراً. ثم لا تكون زيادتها إلا نقصاً في أعمار الأفراد وإبلاء للجديد من حياة المجموع.

وإنما نعني هذه الأيام التي هي لمع في الدهور، وشيات في غرر العصور، هذه الأيام التي تعرف بما يقع فيها من الأعمال، لا بما يوضع لها من الأعلام، وتذكر بآثارها في الأمم، لا بمواقعها من الأسبوع أو الشهر، هذه الأيام التي تطول وتتسع حتى تستغرق القرون وتستوعب الأجيال على حين يبقى غيرها محدوداً بمطلع الشمس ومغربها.

إن أحداً من المسلمين لا يجهل يوم بدر ولا يجهل -وإن كان عاميًّا- أثره في ظهور التوحيد على الشرك، ولكن قليلاً منهم من يعرف أن اسمه يوم كذا وأن نسبته من الشهر كذا، وقد غربت شمس يوم بدر منذ مئات الآلاف من الأيام وجرّ عليه الفلك أذيال عشرات الآلاف من شركائه في الاسم، فلم يعف له رسمًا ولم يطمس له أثراً. ومات معناه الزمني المحدود ولكن معناه التاريخي النفسي لم يمت بل هو باق ما بقي الإسلام، طويل العمر ما طال، واسع المعنى ما اتسع.

ولقد علّمتنا لغة العرب فنًّا في مصاص الأشياء فقهنا منه أن من النساء عقائل، وأن في الأموال كرائم، وأن في الجواهر فرائد، وأن في النجوم دراري، وأن في الشعر عيونًا، وأن في الذخائر أعلاقًا إلى آخر ما يجري على هذا النسق، حتى إذا وصلنا إلى الأيام، وهذا أشد -من كل

شيء– ارتباطًا بشؤوننا، لم نجد لمصاصها في اللغة إلا أوصافًا يتعاورها اشتراك الموصوفات، ويتجاذبها اختلاف الاعتبارات، ثم يذيلها شيوع الاتصاف وتبذل الاستعمال حتى تقصر عن التأدية، خصوصًا حين يفيض الوصف التاريخي على الوصف اللغوي، وإن من معجزات القرآن تسميته ليوم بدر الفرقان.

ولكن يسلينا أن ما قصرت فيه اللغة فلم تأت فيه بوصف يليق بجمالها وجلال هذه الأيام، قد وفى به التاريخ فلم نحفظ من أيام الأمم الكثيرة إلا أيامًا قليلة فكان ذلك منه تعبيرًا فصيحًا على أن هذه الأيام هي الخوالد من بين الأيام البائدة. وهي الغرر في الكثرة البهيمة، وهي المشهودات وغيرها غفل. وكان ذلك منه وضعًا تاريخيا يخصص الأوضاع اللغوية. فإذا قلنا هذا يوم خالد ويوم أغرّ ويوم مشهود اطمأنت النفوس إلى تمام التأدية بمراعاة الوضعين التاريخي واللغوي.

أيها الإخوان:

إن يومكم الذي نتحدث عنه هو اليوم الأغرّ المحجل في تاريخ الجزائر الحديث ولا أبعد إذا قلت إنه اليوم الأغرّ في قرون من تاريخ الإسلام.

هذا هو اليوم الذي يجب أن نؤرّخ له في الطور الجديد من أطوار نهضتنا العلمية الدينية، ونؤرّخ به لمبدإ ازدهارها وإثمارها، ونموّها وإبدارها.

هذا هو اليوم الذي التفّت فيه الأمّة حول دينها ولغتها فأثبتت أنها أمّة مسلمة عربية يأبى لها دينها أن تلين فيه للعاجم، وتأبى لها عربيتها أن تدين فيها للأعاجم.

هذا هو اليوم الذي تعلن فيه هذه الأمّة إنابتها إلى ربّها، وتكفيرها عن ذنبها ورجوعها إلى اللّه رجوع عبد أوبقته جرائره، وافتضحت سرائره، وانقطعت أواصره، وعزّ مغيثه وناصره، وظن أن لا ملجأ من اللّه إلا إليه، فرجع على الطريق التي منها هرب. فإن هروب هذه الأمّة من اللّه هو تفلتها من كتابه وبعدها عن هدايته، والتماسها الوصول إليه على غير طريقه، فضلّت وتاهت قرونًا وها هي ذي تفيء إلى اللّه على طريق كتابه وسنّة محمّد وأصحابه وعسى هادي الحائرين أن يعود عليها بعوائد برّه وإحسانه.

هذا هو اليوم الذي يختتم فيه إمام سلفي تفسير كتاب اللّه تفسيرا سلفيًّا ليرجع المسلمون إلى فهمه فهمًا سلفيًّا، في وقت طغت فيه المادة على الروح ولعب فيه الهوى بالفكر، وهفت فيه العاطفة بالعقل، ودخلت فيه على المسلم دخائل الزيغ في عقائده وأخلاقه وأفكاره، وفي أمّة تقطعت صلاتها بالسلف وضعف تقديرها للقرآن، فأصبح ملهاة آذان ومشغلة لسان، وأصبح حفاظها يَقْرأونه للتبرّك أو يتجرون به في المقابر، وعوامها ينزلونه منزلة البصل والكرّاث فيستشفون بحروفه من أمراض سببتها الحرارة أو جلبتها البرودة، وعلماؤها يدرسونه بلغة المصطلحات العرفية، ويتناولونه بأذهان حشيت بالأفكار الطائفية، والتعصبات المذهبية، والمحامل الجدلية، والتوجيهات اللفظية، وبكتب مُلئت بالإسرائيليات المصنوعة والآثار الموضوعة والنظريات، والطلبة –وهم صرعى هذه الفتن– يتلقونه بألسنة جافت البيان العربي وصرفتها العجمة في منهاج غير منهاج العرب، ففسد الذوق واختلّ التصور –وبأفكار غطّى عليها الجمود وسدّ عليها منافذ التفكير– وبنفوس ركبها الملل والسأم،

فرضيت بسماع ما لا يفهم وتلقّي ما لا يعقل، وهان الزمان في حسابها فأصبحت تنفق منه جزافًا، واختلّ تقدير الأشياء عندها فأصبح كل مقروء علمًا وكل قارئ عالمًا.

وأشهد، لقد كنت ضيفا بتونس منذ سبع عشرة سنة، فقيل لي عن عالم من مشائخ جامع الزيتونة من أبعدهم صيتًا في عالم التدريس: إنه يقرئ التفسير. فشهدت يومًا درسه لأُكوِّن فكرة عن دراسة التفسير في ذلك المعهد الجليل. وكنت معنيًّا بهذا البحث وجلست إليه أكثر من نصف ساعة، فوالذي نفسي بيده ما سمعت منه كلمة واحدة من الآية التي هي موضوع الدرس ولا لمحت أمارة ولا إشارة تدُلّ على أن الدرس في التفسير. وما كان كل الذي سمعت إلا حكاية لجدل عنيف وتمثيلاً لمعركة لفظية مستعرة بين السيد الجرجاني وعبد الحكيم حول عبارة لعلها لمفسّر من المفسّرين الاصطلاحيين، ثم انقضت الحصة وقام الطلبة المساكين يتعثرون، تبدو عليهم سيماء التعب والملل والخيبة، وقمت أنا مستيقنًا أن هذه الطريقة في التفسير هي أكبر الحجب التي حجبت المسلمين عن فهم كتاب اللّه ثم زهدتهم فيه وصدتهم عن موارده.

أيها الإخوان:

إن الأمّة الإسلامية التي يقرأ الناس أخبارها في التاريخ فيقرأون المدهش المعجب، ويرى الناس آثارها في العلم والتشريع والأدب والحكمة فيرون الطراز العالي البارع، فيستوي المحب والمبغض في الاعتراف بأن أمّة هذه أخبارها وهذه آثارها لهي الأمّة حقِ الأمّة، إن تلك الأمّة ما كانت أمّة بذلك المعنى وتلك الأوصاف إلا بالقرآن.

فالقرآن هو الذي ربّاها وأدّبها وزكّى منها النفوس، وصفّى القرائح، وأذكى الفطن، وجلا المواهب، وأرهف العزائم، وهذّب الأفكار، وأعلى الهمم، واستفزّ الشواعر، واستثار القوى، وصقل المَلَكات، وقوّى الإرادات، ومكّن للخير في النفوس، وغرس الإيمان في الأفئدة، وملأ القلوب بالرحمة، وحفّز الأيدي للعمل النافع والأرجل للسعي المثمر، ثم ساق هذه القوى على ما في الأرض من شر وباطل وفساد فطهّرها منه تطهيراً وعمرها بالخير والحق والصلاح تعميراً.

أيها الإخوان:

قارنوا بين هذه الأمّة الإسلامية المطوية في بطن الأرض وفي بطون الكتب، وبين هذه الأمّة الإسلامية التي تدب على وجه الأرض تجدوا الفرق بعيداً جداً، ووجوه الشّبه مفقودة البتة مع وجود الاشتراك في الاسم والنسبة. ثم التمسوا السبب تجدوه قريبًا منكم، وما هو إلا هذا القرآن أقامه الأولون وجمعوا عليه قلوبهم وراضوا نفوسهم على أخلاقه، فعلمها الإيمان والأمان والإحسان، واتخذه الآخرون مهجورا فحقت عليهم كلمة اللّه في أمثالهم. فمن لي بمن يرسلها في مسلمي الدعوى والعصبية صيحة داوية: يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن؟

أيها الإخوان:

إن هذه البسيطة لم تشهد منذ دحاها اللّه صلاحًا عامًا وسعادة شاملة كالذي جاءها به القرآن يوم أنزله اللّه على قلب نبيّه محمد ﷺ فأنذر به العالمين ونشره ورثته الأمناء من بعده نقي الجوهر ناصع الحجة.

وإن هذا العالم الإنساني لم يشهد منذ برأه اللّه على ظهرها إفساداً عامًا وشرًّا مستحكمًا وطاعونًا أخلاقيًا جارمًا إلا مرتين، على كثرة ما شهد من الطواعين الجسمانية.

أما إحداهما فكانت قبل الإسلام يوم كان العالم الإنساني كله فريسة للأثرة والاستعباد والاستبداد والفساد والإفساد، يوم كان بحراً متلاطم الأمواج بالرذائل، ويوم كان العقل عبداً للهوى والفكر عبداً للوهم، والحقيقة أمة للخرافة والفطرة رهينة الاعتلال والاختلال، يوم كان هذا العالم كله خاضعاً لشهوات مضطرمة وحيوانية عارمة ووثنية متغلغلة.

ولكن اللّه –جلت قدرته– تداركه، وبه رمق، بالإسلام دين السلام وكتابه القرآن كتاب العدل والإحسان، وبرسوله الأمين يحمل منه للعالَم المثخن الدواء الشافي، ويمسح على مواقع الألم منه بالكف الكافي. فما هي إلا فترة حتى أصبح العالم يمرح في السعادة ويسبح في النعيم وينعم بالأخوّة والتسامح ويتقلب في أعطاف العدل.

وأما الثانية فهي في عهدكم هذا.

ولو أنكم تستشهدون التاريخ: أية المرّتين كانت أشرّ وأشرّ وأدهى وأمرّ، لقال لكم غير متجانف لإثم: إن شرّ المرّتين آخرتهما. ولساق لكم من الحجج ما لا تستطيعون له دفعًا. فإن الشرّ الأول كان من بعض دواعيه الجهل، أما هذا الشرّ فكل دواعيه العلم. وقد كان الشر يعرض على الناس باسمه وفي ثوبه الحقيقي فأصبح يعرض عليهم باسم الخير وفي ثوب الخير. وقد كان العالم متباعد الأجزاء متقطع الأوصال. وفي تباعد الأجزاء تقليل من بواعث الشر، فأصبح العالم مزدحماً حتى ليكاد يلتحم. ومن ازدحامه والتحامه نشأت معضلته الاجتماعية الكبرى وهي مشكلة الأغنياء والفقراء التي لم يفلح في حلّها علم العلماء ولا حكمة

الحكماء ولا قوّة الأقوياء ولا دهاء الدهاة، والتي تفاقم خطبها واضطرام لهيبها حتى أصبح بنو آدم المتآخون في نسبه فريقين مضطغنين يتربص كل فريق بأخيه دائرة السوء. ويا ويل هذه الأرض إذا انفجرت الأحقاد بين أبنائها.

وقد عرفنا التاريخ أن أصل البلاء بين البشر جاء من عصبياتهم المختلفة. وكان مما يهون تلك العصبيات أنها محدودة وأنها تعالج بعصبيات أخرى فيخف ضررها وتتلاشى قوّتها. ولكن مشكلة اليوم أن تلك العصبيات التي كانت تنفع حينًا وتضرّ أحيانًا ذابت كلها في عصبيتين جامحتين كلتاهما ضرر وكلتاهما شر.

إن رحمة الأرض آتية من السماء، وقد جاءت أديان السماء فعلّمت الفقير كيف يرضى ويصبر، وعلّمت الغني كيف يحسن ويرحم، فلماذا لا يرجع بنو الأرض إلى حكم السماء ورحمته؟ ولماذا لا يلتمسون مُثُل الإحسان الكاملة في القرآن؟

أيها الإخوان:

هذا داء العالم البشري فأين دواؤه؟ وهذا مرضه العضال فأين طبيبه؟ وهل يتداركه اللّه بلطفه فيهدي البشر إلى اتباع ما جاء به القرآن من تسامح وتعاون على الخير؟

فيا أيها المشفقون على العالم الإنساني أن يأكل بعضه بعضا، انصحوه بالرجوع إلى الإسلام وكتابه يجد فيهما ظلال السلم وبرد الرحمة وعز القناعة وشرف التقوى ويتمتع من كل ذلك بنعمة السلام.

ويا أيها المسلمون، أنتم أطباء هذه المعضلات ولكنكم جاهلون، وأنتم الحكم المَرْضِيُّ في هذه المشكلات ولكنكم غائبون. ولو كنتم حاضرين حضور سلفكم لمشاهد العالم ومنازعاته العامة لوقفتم -كما وقفوا- بعقائدهم وسطًا بين التناهي والتقصير، وبزكاتهم المرضية حكمًا بين الغني والفقير، وبرحمة الإسلام سدًّا بين الآجر والأجير؛ وإذًا لزرعتم في طول العالم وعرضه الخير والرحمة، وكشفتم عن أقويائه وضعفائه كل كرب وغمّة. وإذًا لرفعتم عن العالم هذه الأصار والأغلال وفزتم من بين حكمائه وعلمائه بتحقيق نقطة الإشكال.

إن العالم في عذاب، وعندكم كنز الرحمة؛ وإن العالم في احتراب، وعندكم منبع السلم؛ وإن العالم في غمّة من الشك، وعندكم مشرق اليقين. فهل يجمل بكم أن تعطلوه فلا تنتفعوا به ولا تنفعوا؟

طبّقوا على أنفسكم جزئية واحدة من إصلاحاته كالزكاة، واظهروا بها للعالم على صورتها العملية الكاملة، وحقيقتها العلمية العليا. ثم قفوا بين الصفين، لا كموقف عمرو بمصاحفه يوم صفين. وأشربوا نفوسهم ما أشربت نفوسكم من معنى قوله تعالى: (**نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون**). ومن معنى قوله تعالى: (**قل بفضل اللّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**)، وأنا الضمين لكم أنهما يتحاجزان ويتسامحان في طرفة عين. إن دينكم دين إصلاح وسبب إصلاح ومظهر إصلاح وكما أوجب عليكم الإصلاح بين المؤمنين مدح الإصلاح بين الناس.

أحيوا قرآنكم تحيوا به، حقّقوه يتحقق وجودكم به. أفيضوا من أسراره على سرائركم ومن آدابه على نفوسكم ومن حكمه على عقولكم تكونوا به أطباء ويكن بكم دواء.

(إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون).

هذه الآية هي دستور الإسلام العام وهذه الآية هي التي نواجه بها كل من رمانا بالتعصب أو بالظلم أو بالأنانية أو بالقسوة. وصدى هذه الآية هو الذي سمعه الناس مردّداً في الجامع الأخضر خمساً وعشرين سنة آخرها أمس.

أيها الإخوان:

تكلم الخطباء والشعراء في المعنى الذي أقيمت لأجله الحفلة، وهو تكريم أخينا الأستاذ عبد الحميد بن باديس وتمجيد أعماله في خدمة الدين والعربية والعلم، وشغلتهم حقوق هذه الحفلة عن حقوق يوم أمس المشهود، وأوشكنا أن نضيع واجبه وأن يمر فلا يتغنى بأوصافه لسان، ولعل الأقلام تجفوه تبعًا لذلك فلا يجري في وصفه قلم.

وقد توزعتني الخواطر حين قمت: أأسلك ما سلكه الخطباء والشعراء من تمجيد أخينا بما هو أهله؟ ولو أني جريت في هذا المضمار وأسلس لي الكلام قياده، كان في ذلك الوفاء لأخينا المبجل،والجفاء ليومنا الأغر المحجل، وإن أنا قمت بما يوجبه الوفاء ليوم القرآن قصرت في حق أخ اعتقد أن ما قاله الشعراء والخطباء في حقه قليل، وكيف تفي حفلة مثل هذه، محدودة الساعات، بتمجيد رجل طوّقت هذا الوطن مننه.

فإن قمت ببعض ما يجب للقرآن وليوم القرآن فحسبي في التنويه بأعمال أخي الأستاذ أن هذا اليوم بعض حسناته.

رسالة إلى الأستاذ أحمد توفيق المدني (*)

الأخ الأستاذ أحمد توفيق المدني حفظه اللّه،

أخي:

أعتقد أن الراحل أخي العزيز لم يكن لأحد دون أحد، بل كان كالشمس لجميع الناس، وأعتقد أن فقده لا يحزن قريبا دون بعيد، وأن أوفر الناس حظا من الأسى لهذا الخطب هم أعرف الناس بقيمة الفقيد وبقيمة الخسارة بفقده للعلم والإسلام، لا للجزائر وحدها.

فلهذا بعثتُ أعزيكم على فقد ذلك البحر الذي غاض، بعد أن فاض، ببقاء آثاره في الحياض، وأنهاره في الرياض، كما يعزي على مغيب الشمس بشفقها وعن ذبول غضارة الشباب ببقاء رونقها، وإن كانت التعازي تعاليل، لا تطفىء الغليل، ولكنها على كل حال تحمل بعض الروح من كبد تتلظى شجناً، إلى كبد تتنزى حزنا.

وظنّي في أخي أنه لو كان يعرف عنواني لكان أوّل معزّ لأول معزًى.

واحسرتاه! رحم اللّه الراحل العزيز، جزاء ما بثّ من علم وزرع من خير، وثقّف من نفوس، ولله ذلك اللّسان الجريء، وذلك الجنان المشع، وذلك الرأي الملهم، وإنا لفقدك ياعبد الحميد لمحزونون.

أخوكم الحزين الإبراهيمي

(*) نشرت في كتاب «حياة كفاح» (مذكرات أحمد توفيق المدني) الجزء الثاني، ص 337، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977)، وقد أرسلت من أفلو في شهر أفريل 1940، على أثر وفاة الإمام عبد الحميد بن باديس.

تساؤل نفس (*)

سؤال : أين —ياأختَ— الحسام المنتضي   لصروف الدهر في اليوم العصيب
أين —ياأخت— الإمام المرتضي   ذو البيان الحرّ والرأي المصيب
أين؟ من أن أمحل الفكر مضى   يرحض الأمحال بالفكر الخصيب
جواب : جاءه المحتوم من صرف القضا   فقضى، لم يرض بالدنيا نصيب
سؤال : أين— ياأخت— هلال الداجيه   فارس الحلبة كشاف الكرب
كان نورا في الليالي الساجيه   ويل قومي إن توارى أو غرب
أين —ياأخت— إمام الناجيه   وأمين اللّه عن مجد العرب
جواب : حرمت منه النفوس الراجيه   وتملت حظها منها الترب
سؤال : أين حامي الدين من شوب الضلال   ومجير الحق من إفك الهوى
أين —ياأخت— حواري الجلال   صيقل الأذهان إكسير القوى
عاف خفض العيش في برد الظلال   وأمتطى للمجد نزاع الشوى
جواب : خبر الأظعان والحي الحلال   أن نجم الدين فيهم قد هوى
سؤال : أين ليثٌ كان بالأمس هنا   خادرا قد ملأ الدنيا زئير
أغلبا في لبدتين أرتهنا   عن عرين الدين يرمي ويجير
ما ونى عن فرصة أو وهنا   هل رأيت المخذم العضب الطرير

(*) نُظمت في آفلو، يوم السبت 13 رجب الفرد 1359 هـ، الموافق 1 أغسطس 1940م، وذكر هذا النص أحمد قصيبة في مجلة «الثقافة»، عدد 7، الجزائر، مايو— يونيو 1985.

جواب: هجــر الغيل وأسرى موهنـــا   والحمى أصبـــح نهبـا للمغيـر

سؤال: أين منا اليوم- ياأخت- الرئيس   كـم به قـد رفع القـــوم الرؤوس

ما له غاب؟ فمـا منه حسيـس   ما له أقصـــر واليـــوم عبـوس

من رمى الأمّة بالجـــد التعيـــس   وسقاها جــرع الغـــم كـــؤوس

جواب: غاله من خاتل الموت دسيـــس   فهو قد أصبح رهناً في الرمــوس

... والسلام عليكم مجتمعين على الحق ومتفرّقين في خدمة الحق.

أخوكم المعتد بوجودكم وعطفكم

محمد البشير الإبراهيمي

مقامة في رثاء الإمام إبن باديس
مناجاة مبتورة لدواعي الضّرورة (*)

تقديم محمد الغسيري

الوفاء قليل في البشر، وأوفى الأوفياء من يفي للأموات، لأن النسيان غالبا ما يباعد بين الأحياء وبينهم ، فيغمطون حقوقهم، ويجحدون فضائلهم.

وما رأينا في حياتنا رفيقين جمع بينهما العلم والعمل في الحياة، وجمع بينهما الوفاء حين أستأثر الموت بأحدهما، مثلما رأينا إمامي النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي، رحمَ اللّه الميت، ومدّ في عمر الحي حتى يحقق للجزائر أمنيتها.

من أعلى ما امتاز به أستاذنا الجليل، ورئيسنا الأكبر، محمد البشير الإبراهيمي من شرف الخلال(نكران الذات) فهو لا يزال يعمل الأعمال التي تعجز عنها الجماعات وتنوء بها العصب، وهومع ذلك لا ينسب الفضل إلا لإخوانه، ورفقائه الأموات والأحياء.

يصرّح بذلك في خطبه الدينية، ومحاضراته الجامعة، ويقول: إن كل فضل في هذه الحركة العلمية النامية يرجع إلى جمعية العلماء، وإنه لولا جمعية العلماء لما كان هو ، ونحن أبناؤه، نشهد، وإخوانه يشهدون أنه لولا علمه ولسانه وصبره وتأثيره الذي يشبه السحر، لما كانت جمعية العلماء، ولولا براعته في التصريف والتسيير لما سار لجمعية العلماء شراع في هذه الأمواج المتلاطمة في الفتن.

• • •

(*) نشرت في العدد 76 من جريدة« البصائر»18 أفريل 1949م، وقد كتبت في أفريل 1941 م.

مات إبن باديس، في حين كان رفيقه، في الجهاد وقسيمه في العلم والعمل محمد البشير الإبراهيمي منفياً في قرية «آفلو» من الجنوب الوهراني، بحيث لم يحضر دفنه، ولم يؤبنّه بكلمة، فعوّض ذلك برسائل تعزية كتبها إلى إخوانه بثّ فيها حزنه للمصيبة، وصوّر فيها آثارها، ولم تنسه الفجيعة ما يجب من النصائح بالثبات، وإستمرار السير، فجاءت رسائل من ذلك الطراز الساحر الذي لا يحسنه إلا الإبراهيمي، ولا أدري أيحتفظ إخواني بتلك الرسائل الفنية أم ضيّعوها؟!

ولما مضت على موت الأستاذ سنة، ورفيقه لا يزال في المنفى، أرسل الرئيس الجليل من منفاه هذه المقامة إلى مقيمي الذكرى الأولى لابن باديس وتلاها في حفل مختصر كاتب هذه الكلمة، فأبكت العيون، وجدّدت الأسى.

رغبنا إلى أستاذنا أن ننشر هذه المقامة في ذكرى هذه السنة، إذ كان عاجزا عن كتابة كلمة خاصة بها لمرضه واشتغاله، فأذن– أبقاه– اللّه–بعد امتناع لأن أستاذنا– حفظه اللّه– لا يرى السجع معبرا عن النوازع العميقة، وإن كان هو إمام العصر بلا منازع في هذه الطريقة الأندلسية البديعة التي لا يحسنها إلا من جمع بين الطبع والصنعة، وملك أزمة اللغة والغريب...وحلّت في الأخير رغبتنا منه محل القبول، حرصا على هذه المقامة أن تضيع إن لم تسجل، وكم من نفائس مثل هذه المقامة، وكم من رسائل وكم من تحف فنية من أدب الهزل والنكتة، وكم من ملاحم شعرية، بلغت الآلاف من الأبيات! مازالت مطمورة في أوراق الأستاذ، وفي حافظته العجيبة، وإذا لم يحرص أمثالنا من تلامذة الأستاذ على إستخراجها ونشرها ضاعت،وخسر الأدب والعلم خسارة لا تعوّض، وها هي ذي المقامة الباديسية، وننبّه إلى أن الأستاذ حذف منها كثيرا مما لا تسمح الظروف بنشره.

تلمسان – محمد الغسيري

• • •

سلام يتنفس عنه الأقاح بإزدهاره وإيراقه، ويتبسم عنه الصباح بنوره وإشراقه.

وثناءُ يتوهج به من عنبر الشجر عبيره، ويتبلج به من بدر التمام، على الركب الخابط في الظلام، منيره.

وصلوات من اللّهَ طهورها الروح والريحان، وأركانها النعيم والرضوان، وتحيات زكيات تتنزل بها – من الملإ الأعلى – الملائكة والروح، ونفحات ذكيات تغدو بها رسل الرحمة وتروح، وخيرات مباركات يصدق برهان الحق قولها الشارح بفعلها المشروح.

وسلام من أصحاب اليمين، وغيوث من صوادق الوعود، لا صوادق الرعود، لا تخلف ولا تمين، وسحائب من الرحمات تنهل سواكبها، وكتائب من المبشرات ترجي مواكبها.

وسوافح من العبرات تنحل عزاليها، ولوافح من الزفرات تسابق أواخرها أواليها.

على الحدث الذي إلتأمت حافتاه على العلم الجم والفضل العد، ووارى، ترابه جواهر الحجا والذكاء والعزم والجد، وطوى البحر الزخار في عدة أشبار، فأوقف ما لا حدّ له عند حد، وإستأثر بالفضائل الغزر، والمساعي الغرّ، والخلال الزهر، فلم يكن له في الأجداث ند، وأصبح من بينها المفرد العلم كما كان صاحبه في الرجال العلم الفرد.

وسلام على مشاهد كانت بوجوده مشهودة، وعلى معاهد كانت ظلال رعايته وتعهّده عليها ممدودة، وعلى مساجد كانت بعلومه مواعظه معمورة، وعلى مدارس كانت بفيضه الزاخر، ونوره الزاهر، مغمورة، وعلى جمعيات كان شملها بوجوده مجموعا، وكان صوته الجهير، كصوت الحق الشهير، مدويا في جنباتها مسموعا.

مشاهد كان يراوحها للخير والنفع، وكانت آفاقها بأنواره مسفرة.

ومعاهد كان حادي زمرها إلى العلم، وهادي نزآعها إلى الإحسان والسلم، فأصبحت بعده مقفرة.

ومدارس، مامدارس ، مهدها للعلم والإصلاح مغارس، ونصبها في نحور المبطلين حصونا ومتارس، وشيّدها للحق والفضيلة مرابط ومحارس.

وسلام على شيخه الذي غذى وربى، وأجاب داعي العلم فيه ولبّى، وآثر في توجيهه خير الإسلام، فقلّد الإسلام منه صارما غضبا، ، وفجّر منه للمسلمين معينا عذبا، فلئن ضايقته الأيام في حدود عمره، فقد أبقت له منه الصيت العريض، والذكر المستفيض، ولئن سلبته الحلية الفانية فقد ألبسته من مآثره حلل التاريخ الضافية، ولئن أذاقته مرارة فقده، فقد متعته بقلوب أمة كاملة من بعده، ولئن حرمته لذة ساعات معدودة، فقد أسعدته به سعادة غير محدودة.

وسلام على إخوان كانوا زينة ناديه، وبشاشة واديه، وكانوا عمّار سامره، والطيب المتضوع من مجامره، والجوارح الماضية في تنفيذ أوامره.

وسلام على أعوان كانوا معه بناة الصرح، وحماة السرح، وكانوا سيوف الحق التي بها يصول، وألسنة الصدق التي بها يقول، أبت لهم عزة الإسلام أن يضرعوا أو يذلوا وأبت لهم عزة الإسلام أن يضرعوا أو يذلوا وأبت لهم هداية القرآن أن يزيغوا عن منهاجه أو يضلوا، وأهلك العالم زلل العلماء فتقاسموا بشرف العلم أن لا يزلوا، تشابهت السبل على الناس فاتخذوا سبيل الله سبيلا، وافترق الناس شيعا فجعلوا محمداً وحزبه قبيلا.

• • •

ولقد أقول على عادة الشعراء- وما أنا بشاعر- لصاحبين من تصوير الخيال أو من تكييف الخبال- تمثلهما الخواطر تمثيل صفاء، وتقيمهما في ذهني تمثال وفاء: بكرا صاحبي فالنجاح في التبكير، وما على طالب النجح بأسبابه

من نكير، تنجحا لصاحبكما طية، لا تبلغ إلا بشد الرحل وتقريب المطية، فقد ختمت- كما بدئت- الأطوار، بدولة الرحال والأكوار، فادفعا بالمهرية القود، في نحر الوديقة الصيخود، ولا تخشيا لذع الهواجر،وإن كنتما في شهري ناجر، ولا يهولنكما بعد الشقة، وخيال المشقة، ولا الفلوات يصم صداها، ويقصر الطرف من مداها، ولا السراب يترجرج رقراقه، ويخدع الضامي المحرور مراقه.

سيرا على اسم اللّه- في نهار ضاح، وفضاء منساح ضاحك الأسرة وضاح وتخللا الأحياء فستجدان لاسم من تنتجعانه ذكرا ذائعا في الأفواه، وثناء شائعا على الشفاه، وأثرا أزكى نماء وأبقى بركة على الأرض من أثر الغمام المنهل، فإذا مسكما الملال، أو غشى مطيّكما الكلال فاحدوا بذكراه ينبعث النشاط، وينتشر الاغتباط، وتغنيا بها عن حمل الزاد، وملء المزاد، وتأمنا غوّل الغوائل، من أفناء دراج ونائل[1].

سيرا- روحي فداؤكما من رضيعيْ همة، وسليليْ منجبة من هذه الأمة- حتى تدفعا في مسي خامس، له يوم الترحل خامس، إلى الوادي الذي طرز جوانبه آذار، وخلع عليه الصانع البديع، من حلي الترصيع، وحلل التفويف والتوشيع، ما تاه به على الأودية فخلع العذار.

وأتيا العدوة الدنيا فثم المنتجع والمراد وثم المطلب والمراد وثم محلة الصدق التي لا يصدر عنها الورّاد، وثم مناخ المطايا على حلال الحق، وجيرة

---

(1) أولاد دراج، مجموعة قبائل ترجع أصولها إلى هلال بن عامر جد القبائل العربية التي أغارت على شمال إفريقيا فخربوا، ولكنهم عربوا، ومواطن أولاد دراج إلى الآن هي مابين المسيلة (المحمدية) وطبْنة من مقاطعة قسنطينة، وأولاد نائل مثلهم ولكنهم أكثر منهم عدداً، ومواطنهم تتصل بمواطن إخوانهم أولاد دراج ولكنها تتسع في مقاطعة الجزائر، ولا تزال المخايل والسمات العربية ظاهرة في هذه القبائل.

الصدق وعشراء الخلود. الذي محا الموت ما بينهم من حدود، اهتفا فيها بسكان المقابر عني:

ما للمقابر لا تجيب الداعـــي أوَ ما أستقلّت بالسميع الواعي

وخصّا القبر الذي تضمّن الواعي السميع، والواحد الذي بذّ الجميع، فقولا له عني:

ياقبر، عزّ على دفينك الصبر، وتعاصى كسر القلوب الحزينة على من فيك أن يقابل بالجبر، ورجع الجدال، إلى الإعتدال، بين القائلين بالإختيار والقائلين بالجبر،

ياقبر، ما أقدر اللّه أن يطويّ علماً ملأ الدنيا في شبر!

ياقبر، ما عهدنا قبلك رمسا، وارى شمسا، ولا مساحة، تكال بأصابع الراحة، ثم تلتهم فلكا دائرا، وتحبس كوكبا سائراً.

ياقبر، أتدري من حويت؟ وعلى أي الجواهر أحتويت؟ إنك إحتويت على أمة، في رمة، وعلى عالم في واحد.

ياقبر، أيدري من خطك، وقارب شطك، أي بحر ستضم حافتاك؟ وأيّ معدن ستزن كفتاك؟ وأي ضرغامة غاب ستحتبل كفتاك؟ وأيّ شيخ كشيخك وأي فتى كفتاك؟ فويح الحافرين ماذا أودعوا فيك حين أودعوا؟ وويح المشيعين من ذا شيّعوا إليك يوم شيّعوا؟ ومن ذا ودّعوا منك إذ ودّعوا؟ إنهم لايدرون أنهم أودعوا بنّاء أجيال في حفرة، وودّعوا عامر أعمال بفقرة، وشيّعوا خذن أسفار، وطليعة استنفار، إلى آخر سفرة.

ياقبر، لا نستسقي لك كل وطفاء سكوب، تهمي على تربتك الزكية وتصوب، ولا نستدعي لترويض ثراك المثقلات الدوالح، والغوادي الروائح، ولا نحذو في الدعاء لك حذو الشريف الرضي، فنستعير للنبت جنينا ترضعه

المراضع، من السحب الهوامع، تلك أودية هامت فيها أخيلة الشعراء، فنبذتهم بالعراء، وزاغوا بها عن أدب الإسلام ومنهاجه، وراغوا عن طينته ومزاجه، بل تلك بقية من بقايا الجهل، ما أنت ولا صاحبك لها بأهل.

• • •

قولا لصاحب القبر عني: يا ساكن الضريح، نجوى نضو طليح، صادرة عن جفن قريح، وخافق بين الضلوع جريح، يتأوبُه في كل لحظة خيالك وذكراك، فيحملان إليه على أجنحة الخيال من مسراك، اللهب والريح، وتؤدي عنهما شؤونه المنسربة، وشجونه الملتهبة، وعليهما شهادة التجريح.

إن من تركت وراك، لم يحمد الكرى فهل حمدت كراك؟ وهيهات، ما عان كمستريح! ياساكن الضريح، أأكني؟ أم أنت كعهدي بك تؤثر التصريح؟ إن بعدك، أتعب من بعدك، لقد كانوا يلوذون من حياتك الحية بكنف حماية، ويستذرون من كفاءتك للمهمات بحصن كفاية، ويستدفعون العظائم منك بعظيم، وأيم الله لقد تلفتت بعدك الأعناق واشرأبت، وماجت الجموع واتلأبت، تبحث عن إمام لصفوف الأمة، يملأ الفراغ ويسد الثلمة، فما عادت إلا بالخيبة، وصفر العيبة.

ياساكن الضريح، متَّ فمات اللسان القوّال، والعزم الصوّال، والفكر الجوّال، ومات الشخص الذي كان يصطرع حوله النقد، ويتطاير عليه شرر الحقد، ولكن لم يمت الإسم الذي كانت تقعقع به البرد، وتتخلى به القوافي الشرد ولا الذكر الذي كانت تطنطن به الأنباء، وتتجاوب به الأصداء، ولا الجلال الذي كانت تعنو له الرقاب، وتنخفض لمجلاه العقاب، ولا الدوي الذي كان يملأ سمع الزمان، ولا يبيت منه إلا الحق في أمان.

مات الرسم، وبقي الإسم، واتفق الودود والكنود على الفضل والعلم

وعزاء فيك لأمة أردت رشادها، وأصلحت فسادها، ونفقت كسادها، وقوّمت منآدها، وملكت بالإستحقاق قيادها، وأحسنت تهيئتها للخير وإعدادها، وحملتها على المنهج الواضح، والعلم اللائح، حتى أبلغتها سدادها وبنيت عقائدها في الدين والحياة على صخرة الحق، ومثلك من بنى العقائد وشادها، أعليت اسمها بالعلم والتعليم، وصبّرت ذكرها محل تكريم وتعظيم، وأشربتها معني الخير والرحمة والمحبة والصدق والإحسان والفضيلة فكنت لها نعم الراحم وكنت بها البر الرحيم.

ولقد حييت فما كانت لفضلك جاحدة، ومت فما خيّبت من آمالك إلا واحدة[1].

وهنيئا لك ذخرك عند الله مما قدمت يداك من باقيات صالحات، وعزاء لك فيمن كنت تستكفيهم، وتضع ثقتك الغالية فيهم، من إخوانك العلماء العاملين، الصالحين المصلحين. فهم- كعهدك بهم - رعاة لعهد الله في دينه، وفي كتابه، وفي سنّة نبيّه، دعاة إلى الحق بين عباده، يلقون في سبيله القذى كحلا، والأذى من العسل أحلى.

وسلام عليك في الأولّين، وسلام عليك في الآخرين، وسلام عليك في العلماء العاملين، وسلام عليك في الحكماء الربانيين، وسلام عليك إلي يوم الدين.

آفلوا[2]، 22 ربيع الأول 1360 هـ/ 9 أفريل 1941.

---

(1) هي القيام بثورة جارفة تكتسح الإستعمار الفرنسي، وتنتزع بها منه حريتها وإستقلالها، فهذه هي الأمنية التي كنا نتناجى بها ونعمل لتصحيح أصولها، وقد حققت الأمة الجزائرية الماجدة هذه الأمنية بعد نحو أربع عشرة سنة على أكمل وجه.

(2) آفلو: قرية نائية في جبل العمور من الجنوب الوهراني، وهذه القرية هي التي أختارتها السلطة العسكرية الفرنسية منفى لكاتب هذه الكلمات في أول الحرب العالمية الثانية فقضى فيها ثلاث سنوات.

لقاء ووفاء (*)



أيها الأخوان:

هذا أول اجتماع نعقده بعد أربع سنوات ونصف، مرّت كليالي الهجر على المُحبّ العميد، بين أعنات الليالي بخطوبها السود، وقسوة الأيام بأحداثها الصم، وتجني الخصوم بكيدهم الجبّار ومكرهم الكبّار، وبين الفتن المتلاحمة التي تطير فيها الألباب، وتتناكر في ظلماتها الأحباب، ويتنكب فيها الرأي واللسان جادة الصواب، والمواقف التي زلت فيها أقدام وضلّت أحلام، ونكص على العقب أقوام وأقوام.

فنحمد اللّه على أن ثبّت هذه الفئة القليلة بالقول الثابت، وأخذ بأيديها الى ساحة اليقين وساحل النجاة، فلم تزغ لها في الحق عقيدة، ولم تهن لها في قوله وفعله عزيمة، ولم تلن لها في مصاعة الباطل والمبطليبن شكيمة، ولم يثنها عن مبدئها الحق ما لقيت من أذى وظلم وهضيمة، ولا فتن لها في مداحض الشبهات رأي ولا طانت روية، ولا لاذت في معترك القوة والحق بالمداورة ولا بالتفية، ولا خضعت لطواغيت الجور مهما طغت وبغت، وبلغت من العتوّ والجبروت ما بلغت، بل ما زادها ذلك إلا إيمانا بربّها، وإعتدادا بنفسها، واعتمادا على حقها، وإعتزازا بإسلامها، وثباتا على مبدئها، وثقة بخالقها، ووفاء بعهدها، وقياما بواجبها، وبرا، برجالها، ووفاء لإمامها.

(*) نص الخطاب الذي ألقاه الشيخ في أول اجتماع للمجلس الإداري لجمعية العلماء بعد إطلاق سراحه من منفى آفلو، وذلك سنة 1943، ووجدنا مسودته في أوراق الشيخ.

أيها الإخوان: إن الإسلام لمفتقر في هذا الطور الأخير من حياته إلى ذلك الطراز العالي من البطولة التي عهدها في أبنائه الأولين، وإلى ذلك النوع السامي من التضحية في سبيله وإستحلاء الأذى في الدعوة إليه، ومواصلة الكفاح للكائدين له وهي الخلال التي قام بها بناؤه حينما قام بها أبناؤه، فكانت فئتكم القليلة في العدد، الكثيرة بما تستمده من عون اللّه وحده من المدد، هي طلائع الجهاد، والعوامل الممهدة للمهاد، في ميدان التضحية والإستشهاد.

أيها الأخوان: إن بعد المسلمين عن روح القرآن وهدي القرآن غرس فيهم خصالا من الخور والفسولة أدت بهم الى ماترون، وانتهت به إلى ما منه تشكون، وإن هذه الخصال التي تمكنت من النفوس لا تزول جراثيمها المميتة إلا بصاخة من الأحداث وقارعة من المصائب، تخرجها من حبس الخمول إخراجا وتزعجها الى ميدان العمل إزعاجا،، فمرحبا بالتطريد والتشريد، والإرهاق الشديد، والحبس ولو على الدوام والتأبيد، والنفي ولو الى القرار البعيد، إذا كان كل ذلك يذيب زيف الأخلاق الخادعة، ويجتث غشّ النفوس الخامدة، ويشد وهن العزائم الراكدة، ويرحض عنا أوضار الضعف والخور والانحلال، ويجمع القلوب بعد ذلك على الإيمان بالحق، والوفاء للحق، والتناصر بين أصحاب الحق.

أيها الأخوان: إن الرؤوس التي رفعها الإسلام تابى أن تخضع إلا للإسلام، وإن الألسنة التي استقامت أسلاتها على قولة الحق تابى أن يلويَها لاوٍ لغير الحق، وإن القلوب التي انطوت سويداؤها على معنى التوحيد تابى أن تحمل معنى من معاني التفريق، ويشهد اللّه انكم كل أولائك، على إقبال الأيام وإدبارها، واحلائها وامرارها، فما عنت وجوهكم لغير اللّه، ولا خضعت

أعناقكم لظالم، ولا لويت ألسنتكم بكلمة باطل، ولا نزعتم الى تفرق ، ولا تهوّرتم في تأويل، ولا دنتم بتعطيل.

يشهد اللّه والتاريخ والواقع أن الحق ألف بين هذه الفئة القليلة حتى أصبحوا وكأنهم ليسوا أعضاء جمعية بل أعضاء جسد واحد، يألم جميعها لمصيبة الواحد منها، شهد لكم التاريخ وشهد لكم الواقع بذلك في الأحداث الملمّة بكم على ما بينها من تفاوت في الجسامة والوقع: يوم مات الإمام الرئيس ، ويوم أن أبعد بعضكم، ويوم أن سجن، بعضكم، شهد اللّه أنكم حققتم معنى الوفاء الإسلامي في أيام الهزاهز والفتن، كما حققتم معاني الإسلام بأكملها في أيام الأمن.

وها قد عاد المبعد، وأطلق السجين، وكل ذي غيبة يؤوب، وغائب الموت لا يؤوب، فأين قمر هذه الحقبة ومبعث ما كان يلوح عليها من هيبة وجلالة، أين فارس هذا الميدان المعلم، وبطله، المشيح، أين ذلك الفكر الجوّال؟ وأين ذلك اللسان القوّال؟ أين إمام الصفوف، وقائد الزحوف، ومنتضى الآراء قاطعة كالسيوف، ماضية كالحتوف؟ أين – لا أين – ذلك الإمام الذي كانت تصعد الأبصار وتصوب فلا تقعَ إلاّ عليه وتمتد أيدي الالتماس، فلا تشير الأصابع إلاّ إليه؟ أين ذلك المفرد العلم الذي شأى من قبله وأتعب من بعده؟ فقدناه– أيها الإخوان– بل فقدته الأمة الجزائرية، بل فقده الإسلام، أحوج ما كان الجميع الى علمه وآرائه، الى عزمه وإقدامه، والى شجاعة قلبه ولسانه، والى ثباته وثباته، إن فقد إمامنا جرح لا يندمل، وإن ذكره وذكراه كلما جال على اللسان او جاش بهع الخاطر جراحات تتنزى الما وإن لم تثغب دما، وإن نكء الجرح بالجرح أوجع، نعم، نعم ، وإن أنكى من هذه الجراحات أن يموت الإمام في مثل هذه الزعازع الهوج التي أجرت الألسنة فعاقتها عن البَوْح،وكبتت الخواطر المعتلجة بالثناء العاطر فسدتها عن الفَوْح.

ولولا الرجاء في يوم تتجلى عنه الغيوب، فتفيض فيه العبرات المحبوسة والزفرات المكبوتة، وتجيش فيه الألسنة بما فيه الوفاء للراحل والكفاء للتاريخ، وتقوم الأمة بما عليها من حق التمجيد المشروع، لولا ذلك الرجاء لذهبت منها النفوس حسرات.

فيا يوم عم صباحا، وأشرق على الخابطين لمّاع الجبين وضاحا، ويا يوم، من لي بك من يوم! كن بعض أيام عمري أكن نائحة المأتم وغراب الندبة على من لم تشرق أمثالك على أمثاله منذ أزمان.

أيها الأخوان: إن من حق إمامنا علينا أن نترحم عليه وأن نستغفر له قياما بحق السنة. وأن نمضي متآزرين في تنفيذ أعماله وتحقيق آماله، وأنتم أعلم الناس بأعماله وآماله، فقد شاركتموه في حمل الأمانة وتأديتها في حال حياته، فعليكم أن تضطلعوا بتتميمها بعد وفاته.

أيها الإخوان: لو كنت غير من أنا وكنتم غير مَنْ أنتم، لفاض لساني في هذه الجلسة بشكر أياد سلفت منكم لأخيكم العاجز، ولكنكم في جلالة أقداركم أغنياء عن الإطراء، كما أنني في بساطتي غني عن المجاملة، وإنما أجدني مضطرا إلى الإشادة بالثناء عليكم في موقفكم يوم مات الأستاذ الرئيس وأرجف المرجفون بالجمعية، فوقفتم موقفا صارما أرغم الأعداء وسر الأوداء، وأبنتم للمفترين أن من يتهمونهم بالقصور رشداء.

ذكرى عبد الحميد بن باديس الثامنة
موقع معهده منها (*)

أظلتنا الذكرى الثامنة لموت فقيد العروبة والإسلام ومحييهما بهذا القطر عبد الحميد بن باديس، ونحن في بحر لجي من الفتن المحيطة بالعروبة والإسلام، نغالب تيارها، ونروض بالعزيمة زخارها، ونقاوم بالإيمان والثبات إعصارها. وكأنها توافت على ميعاد لتمتحن وفاءنا للفقيد وتلهينا بأباطيلها عن القيام بحقه، وتحملنا بقسوتها على النسيان لفضله، فما وجدنت إلا ما يشجيها بالغم، ويزجيها على الرغم.

وقد كانت إقامة هذه الذكرى في السنين الماضية لا تعدو إثارة الشجون الراكدة وتعديد فضائل الفقيد وتهويل المصيبة فيه، فإن زادت فبتجلية مواقع الأسوة للشباب المتعلم من سيرته، ومع اتساع آفاق تلك السيرة وانفساح مجال القول فيها فقد أصبح الحديث عنها من المكرر المعاد .

أما ذكرى هذه السنة فإنها تمتاز بشيئين جديدين يحلو الحديث عنهما ولا يتطرق إلى سامعيه الملل، ويأتي المتحدث فيهما بالحكمة السائرة في هذا الباب وهي ذكر العظماء بأعمالهم ،وحث الأمة على تحقيق آمالهم .

هذان الشيئان هما : عودة« البصائر» إلى الظهور وتأسيس معهد إبن باديس بقسنطينة .

(*) «البصائر »العدد32،السنة الأولى من سلسلة الثانية، 19أفريل 1948م.

مات الفقيد في السادس عشر من أبريل سنة 1940 وفي نفسه حسرة من تعطيل «البصائر »وكان معتزًا بها أيما اعتزاز.

وكان في السنة الأخيرة لتعطيلها هو الروح المقوّم لها، فكان يغّذيها بنفحات من روحه ونفثات من قلمه. وكان يعّلق آماله في ترقيتها على رفيقه كاتب هذه

السطور، وكان الكاتب لا يتسع وقته لذلك ، لأن الهّبة التعليمية كانت في عنفوانها ، ورغبة الأّمة في درس القرآن و الحديث كانت متأججة مضطرمة، فكان الكاتب يرى أن من الإجرام تبريد تلك الفورة بالتقصير وإنفاق الوقت في غير التعليم .وكان –رحمه الله –يشتد علي في اللوم ويصمني بالتقصير في حق« البصائر» فإذا زارني بتلمسان ورأى الدروس تنتظم الساعات وسمع درس التفسير بالليل ودرس الموطأ في الصباح الباكر ورأى إقبال الجماهير و تأثيرهم، إبتهج إبتهاج الظافر ، ونسى «البصائر» والحديث عنها . واسترحت من لومه وعتابه.

وأذكر أنه صادف في ليلة من الليالي الزاهرة بحياته درسا في دار الحديث من تلمسان في قوله تعالى: (**وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة**)، فقال لي –رحمه الله– بعد تمام الدرس مامعناه: «إن هذا الدرس وحده كاف لإحياء أمة مستعدة. ولقد زادني هذا الدرس إيمانا بقوله صلى الله عليه وسلم في القرآن: «لا تنقضي عجائه». وإن ما سمعته منك في معنى إتخاذ البيوت قبلة هو ما حوم عليه علماء الاجتماع في مبدأ تكوين الوحدة الإجتماعية للأمم. وأين هداية التجارب من هداية كلام الله؟ ولوددت لو أن المسلمين كلهم يسمعون مثل هذه الدروس). فقلت ممازحا له:

و«البصائر»... فقال لي: ما عليك بعد هذا الجهد أن لا تكتب في البصائر. ولو أن التلاميذ أوتوا حظا من النشاط والتوفيق لما ضاعت هذه الدروس ولنشرت كما هي ففزنا بالحسنيين. فقلت له: عزائي عن هذا أن دروسك لم تكتب وأين هذا الوشل من ذلك البحر، وما قلت له هذا مُجاملاً ولا متواضعا. وما كان مبنى الأمر بيننا -ما عشنا- على الرياء والمجاملة: رحمه اللّه. فعودة «البصائر» إلى الظهور بهذه الديباجة وبهذا الأسلوب أمل من آمال الفقيد قد تحقق، ودين له على جمعية العلماء و فت به في وقته .وما أرهق الدائن ولامطل الغريم، ولوعاش- رحمه الّله- لقر بهذا العمل عينا. فليكن هذا العمل هو زين هذه الذكرى وجمالها وشارتها الممتازة ووشيها الفني.

ثم هات الحديث عن المعهد .إنه -واللّه -الغرة اللائحة في هذه الذكرى. فقد كان من آمال المرحوم أن تكوّن جمعية العلماء في الجزائر كلية- بالمعنى الحقيقي للفظ الكلية - وكان يرى أن هذه الكلية هي العلة الغائية لوجود جمعية العلماء وهي الثمرة للتعليم الذي تجهد فيه وتلاقي في سبيله العنت والنصب، وكنا معشر إخوانه نشاركه في الأمنية والعمل. والغاية من الكلية، وهي أن تخرج للأمة علماء

إختصاصيين في فهم الدين على حقيقته، وفي فقه أسرار الشريعة مأخوذة من كتاب الله والصحيح من سنة نبيه، وفي طرائق الدعوة و الإرشاد التي بني عليها الإسلام، وفي الخطابة التي هي سلاح تلك الدعوة، وفي الأخلاق و الآداب الإسلامية التي هي لباب الدين، وفي فقه أسرار اللسان العربي وآدابه، مع المشاركة في علوم الحياة التي هي سلاح العضر، بحيث يخرج المتخرج منها كامل الأدوات.

وكان–رحمه الله– كثير التحدث عن هذه الكلية، تصور له خواطره منها أكمل مثال، فتجيش تلك الخواطر حديثا ممتعا لذيذا ننازعه إياه ونجاذبه حبله فنذكي خياله في التصوّر وبراعته في التصوير ونحدو آماله إلى التحقيق، وكان كلما إجتمعت ثلة من إخوانه تشاركه في الأمنية والرأي يجري حديث الكلية ويقول لإخوانه: أنا أستكفيكم في كل أمر يتعلق بالكلية إلا الاستعمار فأنا أكفيكموه فخلو بيني وبينه. يقول ذلك إيمانا بربه، واعتدادا بنفسه، واعتزازا بدينه. وكان منقطع النظير في هذه الثلاثة .

وقد اقترح على كاتب هذه السطور أن يضع برنامجا جامعا لدروس الكلية وكتبها ودرجاتها ومناهج التربية فيها وطرائق التعليم العالي، فقلت له: إن هذا شيء يأتي في الدرجة الثانية أو الثالثة، وقبله التمهيد ثم التشيد، فقال لي: إن البرنامج يذكي النشاط ويغري الهمم بالعمل، ففعلت. وجاء البرنامج حافلا بالتدقيقات الفنية في التربية والاعتبارات العلمية في التعليم، والكتب القيمة للدراسة، ومعه تخطيط للكلية ومرافقها. فلما قرأه قال لي: كأني أرى بعيني ما خطه قلمك حقيقة واقعة. وما ذلك على الأمة الجزائرية الماجدة بعزيز. وما ذلك على رجالها المخلصين بكثير .

مات الأستاذ الرئيس والأمنية تختلج في نفسه وتعتلج مع خواطره . ولقد مات وعواصف الفتن تعصف، ومدافع الحرب تقصف ، وأعضاء الجمعية مشتتون بسبب تلك الهزاهز التي تذهل الخليل عن خليله. فلما تنفّس الخناق قليلاً رأت جمعية العلماء التي كان يعمل الفقيد لها وباسمهاو هي الوارثة لمعنوياته والمؤتمنة على مبدإ الإصلاح المشترك، أن تتم أعماله وتُحقّق آماله ،وأن تبرز الكلية من الخيال إلى الحقيقة، فوجدت أن ذلك –كما هو واقع– يستلزم إجتياز مراحل متتابعة: توسيع التعليم العربي الابتدائي

بتكثير مدارسه وتصحيح مناهجه وإعداد رجاله، وقد بلغت الجمعية من هذا في السنوات الأخيرة– رغما عن العراقيل – ما تُغبط عليه، وما لو إطلع عليه المرحوم من وراء حجاب الغيب لسره ولعده من الخوارق. ثم خطت إلى المرحلة الثانية خطوة بتأسيسها لمعهد قسنطينة في أواخر السنة الماضية. ولسنا نعد المعهد مدرسة ثانوية فضلاً عن كونه كلية لأننا نسمي الأشياء بأسمائها ولا نُزَوِّرُ فيها، ولأننا نعلم أن تفخيم مثل هذه الأشياء مزلقة إلى الكذب، ومدعاة إلى غش الأمة في أبنائها. وما وُجد التفخيم إلا كان سببًا في الترخيم. والترخيم حذف ونقص. وإنما المعهد مدرسة دينية إبتدائية أرقى من مدارس البنين تهيّئ للتعليم الثانوي الذي يهيّئ للتعليم العالي. وما ربطناه بجامع الزيتونة إلا تمهيداً لذلك، وإلاّ تدريبًا لطلاّبه من أوّل مرحلة على المناهج التي تقضي بهم إلى آخر مرحلة، حتى ينتقلوا من الأشبه إلى الأشبه، فلا تشتبه عليهم المسالك ولا يضلّ بهم الدليل، والنية معقودة –إذا يسّر اللّه الأسباب – على إحداث معهد في الجزائر وآخر في تلمسان تسهيلاً على الطلاب واستيعابًا لعددهم المتزايد.

وسنربط الجميع –على التدريج والاقتضاء والاستعداد– بالزيتونة والقرويين، بل ستكون هذه المعاهد إحدى وسائل التقريب بين الكليتين. فإننا نعتقد أن الزمن سائر بكليتينا إلى الإصلاح الذي يتطلبه الزمن و البلوغ من الإصلاح إلى أعلى ذروة، وسائر بهما حتماً أو إختياراً إلى توحيد المناهج والكتب. وسيكون آخر ما ينتهي إليه الإصلاح بطبيعته إلغاء التعليمين الإبتدائي والثانوي من الكليتين وقصورهما على التعليم للعلوم الإسلامية العربية– بالمعنى الواسع لهذه العلوم – وما تتطلبه من علوم الحياة وإيكال ذينك التعليمين إلى مدارس في الآفاق موحدة البرامج، موحدة الإدراة والإشراف.

فأما كلية وتدرس الأجرومية فلا، ثم لا، ثم لا. إن كل واحد من اللفظين يتبرّأ من صاحبه وأخشى أن يتبرآ معًا منا لسوء ما تصرفنا فيهما.

إن هذا النوع من المجازفة بالأسماء مما تساهلنا فيه فسهل علينا فصار لنا عادة َفَعَّمَمنَاُه فأصبح لنا سبة . ولو شئنا لضربنا الأمثال. وإن هذا التساهل هو الذي جرّ أ المفترين عليّ تسمية المدارس الابتدائية كليات وما أخذوا ذلك إلا من أن جامع الزيتونة يدرس الأجرومية وهو كلية. فكل مدرسة تدرّس الأجرومية فهي كلية، وياويلنا إذا تفطن هؤلاء لكلمة (جامعة) التي تجري على بعض الألسنة والأقلام وصفا للزيتونة والقرويين، إذا لأصبحت كتاتيب ألف با، كليات ومدارس الأجرومية وابن عاشر جامعات وسيعينهم على ذلك أن لفظ الجامعة أخفّ وأجرى على اللسان وأسير لقربها من الجامع حتى كأنها مؤنّثة، وأرجوا أن لايكون في النهي عن المنكر دلالة عليه.

إننا نبني أساس نهضة فلنضع الأساس على صخرة وإلا انهار البناء، ولا واللّه لا نجاري الأمم في ميدان الحياة حتى تكون كلياتنا ككلياتهم في أسمائها ومسمّياتها فإن لم يكن هذا فنحن هازلون في جدّ الزمان، ومغترون في الخوف بعهد الأمان، وسائرون إلى الوراء بهدي الشيطان، ومن تطلّع إلى ثوب المجد فليحكه بأنامله ومن تشوّق إلى رفع الذكر فليجلبه بعوامله. وإلاّ فالشاعر[1] صارخ في واد، وسيبويه نافخ في رماد.

• • •

(1) هو القائل: «ما حك جلدك...... إلخ».

إن معهد إبن باديس تفسير لرؤيا إبن باديس ، فعلى الأمّة التي تحبه ونحيي ذكراه في مثل هذا الأسبوع من كل سنة أن تعلم أن البكاء والأقوال لا يزيدان في تاريخه ولا في تاريخ الأمّة باباً ولا فصلاً ولا صحيفة. وإن الذي يزيد ويفيد هو أن تلتفّ حول معهده بقلوبها وعقولها وأموالها حتى يكبر ويترعرع، وتبسق أفنانه وتتفرّع،وحتى تكثر أمثاله في القطر، فما نزعم أنه غاية،وإنما هو بداية.

إن الواجبات علينا تلقاء هذا المعهد موزّعة بطبيعتها فعلى الأمّة بذل المال من المرتخص والغال، وعلى الطلبة أمران: إقبال على العلم يصحبه إيمان بضرورته وتحمّل لمتاعبه، وانقطاع إليه يصحبه إعتقاد جازم بشرفه وأنه نور الحياة وأساس الوطنية ورائد الحرية ، فمن لم يكن من الطلبة على هذه الصفات فليلزم داره، وليقطع في الأماني ليله وفي الغرور نهاره، وعلى جمعية العلماء الرأي والتنظيم، والتربية والتعليم،وما من رجالها إلا من هو بحظه زعيم.

إن الأمة حين تزرع على يد جمعية العلماء ستحصد العلم وستجني الثمرات الطيّبة وتستغل الريع المبارك، لا يتخلّف شيء عن ميعاده ولا نتيجة عن مقدماتها وإنها حين تضع أموالها في هذا المعهد تؤدي واجبا عليها لنفسها وتقضي حقا مؤكد القضاء لدينها ولوطنها، وإنها حين تضع المال في أيدي القائمين على المشروع تضعه في الأيدي التي لاتخون ولا تختر، بل تربّه وتربّيه للأمّة، وقد رأيت الأمّة مصادر المال منشورة معلنة وسترى مصارفه كذلك موضحة مبنية كدأب الجمعية في كل مشروع تمسّ فيه يدها مال الأمّة،وإننا نتحدى جميع القائمين بالمشاريع العامّة أن يفعلوا كفعلنا ونحن نبتهج بكل عامل للعلم ساع في تعليم الأمّة

معتقد أن العلم وحده هو سلاح الحياة وسبيل النجاة، ولكننا أعداء للاتجار بالعلم والتزوير على الأمّة باسمه، خصوم للعيسوية الراقصة المرقصة بجميع مظاهرها.

• • •

هذه هي الكلمة التي نقدّم بها هذه الذكرى وهي بيت القصيد فيها، ولم ننح فيها منحى البكاء والتحسّر وتعداد المناقب، وإنما نحونا المنحى العملي الذي وجدت أسبابه، وفتحت أبوابه.

مقدمة كتاب «مجالس التذكير» (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن كتاب الإنسانية العليا استشرفت إليه قبل أربعة عشر قرنا حين ضامها أبناؤها فعقوها فارتكسوا في الحيوانية السفلى فأخلدوا إلى الأرض فأكثروا فيا الفساد، فأنزله اللّه من السماء ليصلح به الأرض وليدل أهلها المستخلفين عليها من بني آدم على الطريق الواصلة باللّه، ويجدد ما رثّ من علائقهم به.

وما أشد شبه الإنسانية اليوم بالإنسانية قبيل نزول القرآن في جفاف العواطف وضراوة الغرائز وتحكم الأهواء والتباس السبل وتحكيم القوّة وتغول الوثنية المالية، وما أحوج الإنسانية اليوم الى القرآن وهي في هذا الظلام الحالك من الضلال وقد عجز العقل عن هدايتها وحده كما عجز قديما عن هدايتها لولا تأييد اللّه له بالأمداد السماوية من الوحي الذي يقوي ضعفه إذا أدركه الوهن ويصلح خطاه إذا إختل ميزانه.

وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر فإنه حقيق بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان إذا وجد ذلك الطراز

(*) مقدمة الشيخ لكاتب مجالس التذكير للإمام عبد الحميد بن باديس وهو الذي جمعت فيه أهم الأبواب التي كانت تصدر تحت هذا العنوان في مجلة الشهاب، طبع الكتاب بالمطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة بمناسبة الذكرى الثامنة لوفاة الإمام إبن باديس 16 افريل 1948.

العالي من العقول التي فهمته، وذلك النمط السامي من الهمم التي نشرته وعممته، فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته، ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلاّ إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف وتولته بالتطبيق العملي نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم أما إنتشاره بين المسلمين بهذه الصورة الجافة من الحفظ المجرد، وبهذا النمط السخيف من الفهم السطحي، وبهذا الأسلوب التقليدي من التفسير اللفظي- فإنه لا يفيدهم شيئا ولا يفيد بهم شيئا، بل يزيدهم بعدا عن هدايته ويزيد أعداءهم استخفافا بهم وإمعانا في التكالب عليهم والتحكم في رقابهم وأوطانهم ، ولو فهمنا القرآن كما فهمه السلف، وعملنا به كما علموا به، وحكمناه في نفوسنا كما حكموه وجعلنا أهواءنا ومشاربنا تابعة له موزونة بميزانه- لو فعلنا ذلك لكنا به أعزة في أنفسنا وأئمة لغيرنا.

تفسير القرآن تفهيم لمعانيه وأحكامه وحكمه وآدابه مواعظه والتفهيم تابع للفهم، فمن أحسن فهمه أحسن تفهيمه، ومن لم يحسن فهمه لم يحسن تفهيمه وإن كتب فيه المجلدات، وأملى فيه ألوف المجالس، وفهم القرآن يتوقف بعد القريحة الصافية والذهن النير على التعمق في أسرار البيان العربي، والتفقه لروح السنة المحمدية المبينة لمقاصد القرآن، الشارحة لأغراضه بالقول والعمل، والإطلاع الواسع على فهوم علماء القرون الثلاثة الفاضلة، ثم على التأمل في سنن اللّه في الكائنات ودراسة ما تنتجه العلوم الإختبارية من كشف لتلك السنن وعجائبها وقد فهمه السلف حق الفهم ففسروه حق التفسير مستعينين على ذلك بما ذكرنا من القرائح والأذهان، وأسرار البيان، ومستعينين بإرشاده على فقه سنن الأكوان، ولو لم ينحسر تيار الفهوم الإسلامية للقرآن بما وقف في سبيله من توزع

المذاهب والعصبيات المذهبية لانتهى بها الأمر إلى كشف أسرار الطبيعة ومكنونات الكون، ولسبق العقل الإسلامي إلى إكتشاف هذه العجائب العلمية التي هي مفاخر هذا العصر.

كان علماء السلف يشرحون الجانب العملي من القرآن على أنه هداية عامة لجميع البشر يطالب كل مؤمن بفهمها والعمل بها، وكانوا يتحاشون الجانب الغيبي منه لأنه مما لا يصل إليه عقل المكلف فلا يطالب بعلمه ولا يحاسب على التقصير فيه، وكانوا ينظرون الى الجانب الكوني منه نظرات مسددة لو صحبها بحث مسدد ممن أتى بعدهم.

وللمفسرين من عهد التدوين إلى الآن طرائق في فهم القرآن وأساليب في كتابة تفسيره، أما الأساليب فقلما تختلف إلا ببعد العصور حين تختلف الأساليب الأدبية، فتنحط أو تعلو فيسرى التطور منها إلى الأساليب العلمية أما الطرائق فإنها تختلف باختلاف الإختصاص في المفسرين والعلوم التي غلبت عليهم وعرفوا بها.

فالمحدثون يلتزمون التفسير بالمأثور، فإن إختلفت الرواية فمنهم من يروي المتناقضين ويدعك في حيرة، ومنهم من يدخل نظره وفكره في التعديل والترجيح كما يفعل أبو جعفر الطبري.

ومقلدة المذاهب يفسرون القرآن بقواعد مذاهبهم ويحكمونها فيه، فإذا خالف نصّه قاعدة من قواعدهم ردوه بالتأويل إليها، وهذا شر ما أصيب به هذا العلم بل هو نوع من التعطيل، وباب من التحريف والتبديل، لأنه في حقيقة أمره وضع لكلام اللّه في الدرجة الثانية من كلام المخلوق، وفي منزلة الفرع من أصله يرد إليه إذا خالفه، وأعظم بها زلة، وإن هذه الزلة هي الغالبة من صنيع المفتتنين بالمذاهب

والمتعصبين لها يتباعدون عن القرآن ماشاء لهم الهوى، فإذا تناولوه فبهذه النظرة الخاطئة.

والمتكلمون في معاني القرآن معظمهم من اللغويين والنحاة، فهم يتكلمون غالبا على الألفاظ المفردة وأوجه الإعراب، فهم أقرب الكاتبين في الغريب أمثال الأصفهاني وأبي ذر الهروي، وإنما أطلقوا على كتبهم هذا الإسم (معاني القرآن) لأن بساطة الأسماء كانت هي الغالبة في زمنهم.

والإخباريون مفتونون بالقصص فلا يقعون إلا على الآيات المتعلقة به، وياليتهم يحققون الحكمة من القصص، فيجلون العبر منها ويستخرجون الدقائق من سنن الله في الأمم وجميع الكائنات، ولكنهم يسترسلون مع الرواية وتستهويهم غرابة الأخبار فينتهي بهم ذلك إلى الإسرائيليات الخاطئة الكاذبة وقد أدخلوا بصنيعهم هذا على المسلمين ضررا عظيما، وعلى التاريخ فسادا كبيرا.

وأصحاب المذاهب العقلية إذا تعاطوا التفسير لا يتوسعون إلا في الإستدلالات العقلية على إثبات الصفات أو نفيها وعلى الغيبيات والنبوات وما يتعلق بها.

والنحاة والباحثون في أسرار التراكيب لا يفيضون إلا في توجيه الأعاريب أو في نكت البلاغة كما يفعل الزمخشري وأبو حيان.

هكذا فعل القدماء والمحدثون بالقرآن، حكّموا فيه نحلهم ومذاهبهم وصناعتهم الغالبة عليهم، فأضاعوا هديه وبلاغهُ وأبعدوا الأمة عنه، وصرفوها عن حكمِه وأسراره، ولو ذهبنا مذهب التحديد في معاني الألفاظ الإصطلاحية لوجدنا المفسر من هؤلاء قليلا.

أما المفسرون الذين يصدق عليهم هذا الوصف فهم الذين يشرحون فقه القرآن ويستثيرون أسراره وحكمه معتمدين على القرآن نفسه، وعلى السنة وعلى البيان العربي كما أشرنا إلى ذلك قيلا، ومن هؤلاء من اقتصر على الأحكام فقط كابن العربي والجصّاص وعبد المنعم بن الفرس، وهؤلاء الثلاثة هم الذين إنتهت إلينا كتبهم، ومنهم من عمم ولكن توسعه ظاهر في الأحكام: أحكام العبادات والمعاملات كالقرطبي وابن عطية واضرابهما.

وكان خمود وكان ركود، وضرب التقليد بجرانه فقضى على ذكاء الأذكياء وفهم الفهماء إلى أن اذن اللّه للعقل الإسلامي أن ينفلت من عقال التقليد ويستقل في الفهم، وللنهضة العلمية الإسلامية أن يتبلج فجرها، ويعم نورها فكانت إرهاصات التجديد لهذا العلم ظاهرة في ثلاثة من أذكى علمائنا وأوسعهم إطلاقا: الشوكاني والألوسي وصديق حسن خان، على تفاوت بينهم في قوة النزعة الإستقلالية، وفي القدرة على التخلص من الصبغة المذهبية التقليدية، ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور امام المفسرين بلا منازع محمد عبده ابلغ من تكلم في التفسير بيانا لهديه وفهما لأسراره وتوفيقا بين آيات اللّه في القرآن، وبين آياته في الأكوان، فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه، ولوفعل لأبقى للمسلمين تفسيرا لا للقرآن بل لمعجزات القرآن، ولكنه مات دون ذلك ، فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسراره محمد رشيد رضا فكتب في التفسير ماكتب ودوّن آراء الإمام فيه، وشرع للعلماء منهاجه ومات قبل أن يتمه، فانتهت أمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى أخينا وصديقنا ومنشيء النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر بل بالشمال الإفريقي عبد الحميد بن باديس.

كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رحمه الله ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة زائدة خص بها، يرفده بعد الذكاء المشرق، والقريحة الوقادة، والبصيرة النافذة- بيان ناصع، واطلاع واسع، وذرع فسيح في العلوم النفسية والكونية وباع مديد في علم الإجتماع ورأي سديد في عوارضه وأمراضه، يمد ذلك كله شجاعة في الرأي وشجاعة في القول لم يرزقهما إلا الأفذاذ المعدودون في البشر، وله في القرآن رأي بني عليه كل أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم، وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هديه والاستقامة على طريقته، وهو رأي الهداة المصلحين من قبله، وكان يرى حين تصدى لتفسير القرآن، أن في تدوين التفسير بالكتابة مشغلة عن العمل المقدم واضاعة لعمر الضلال، لذلك آثر البدء بتفسيره درسا تسمعه الجماهير فتتعجل من الاهتداء به ما يتعجله المريض المنهك من الدواء وما يتعجله المسافر العجلان من الزاد وكان رحمه اللّه- يستطيع أن يجمع بين الحسنيين لولا أنه كان مشغولا مع ذلك بتعليم جيل وتربية أمة ومكافحة أمية ومعالجة أمراض اجتماعية ومصارعة استعمار يؤيدها فاقتصر على تفسير القرآن درسا ينهل منه الصادي، ويتزود منه الرائح والغادي، وعكف عليه إلى أن ختمه في خمس وعشرين سنة، ولم يختم التفسير درسا ودراية بهذا الوطن غيره منذ ختمه أبو عبد اللّه الشريف التلمساني في المائة الثامنة.

كان ذلك الأخ الصديق رحمه اللّه يعلل النفس باتساع الوقت وانفساح الأجل حتى يكتب تفسيرا على طريقته في الدرس، وكان كلما جرتنا شجون الحديث إلى التفسير يتمنى علي أن نتعاون على كتابة التفسير ويغريني بأن الكتابة عليّ أسهل منها عليه ، ولا أنسى مجلسا كنا فيه على ربوة من جبل

تلمسان في زيارة من زياراته لي وكنا في حالة حزن لموت الشيخ رشيد رضا قبل أسبوع من ذلك اليوم فذكرنا تفسير المنار، وأسفنا لإنقطاعه بموت صاحبه فقلت له: ليس لإكماله إلاّ أنت، فقال لي: ليس لاكماله إلاّ أنت، فقلت لهُ: حتى يكون لي علم رشيد وسعة رشيد ومكتبة رشيد ومكاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد فقال لي واثقا مؤكدا: أننا لو تعاونا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيرا يغطي على التفاسير من غير احتياج إلى ما ذكرت.

ولما احتفلت الأمة الجزائرية ذلك الإحتفال الحافل بختمه لتفسير القرآن عام 1357 هجرية، وكتبت بقلمي تفسير المعوذتين مقتبساً من درس الختم وأخرجته في ذلك الأسلوب الذي قرأه الناس في مجلة الشهاب أعجب به إيما اعجاب، وتجدد أمله في أن نتعاون على كتابة تفسير كامل، ولكن العوارض باعدت بين الأمل والعمل سنتين ثم جاء الموت فباعد بيني وبينه، ثم ألحت الحوادث والأعمال بعده فلم تبق للقلم فرصة للتحرير ولا للسان مجالا في التفسير، وإنا للّه.

لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئا منها ، وضاع على الأمة كنز علم لا يُقوَّمُ بمال، ولا يعوض بحال ومات فمات علم التفسير وماتت طريقة إبن باديس في التفسير، ولكن اللّه تعالى أبى إلاّ أن يذيع فضله وعلمه، فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس وكان ينشرها فواتح لأعداد مجلة الشهاب ويسميها (مجالس التذكير) وهي نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له، كما أنها نموذج من أسلوبه الخطابي وأسلوبه الكتابي.

هذه المجالس العامرة هي التي تصدى الأخ الوفي السيد أحمد بوشمال عضد الإمام المفسر وصفيه وكاتبه والمؤتمن على أسراره، لتجريدها من مجلة الشهاب ونشرها كتابا مستقلا، قياما بحق الوفاء للإمام الفقيد وإحياء لذكراه باشرف أثر من آثاره، وها هو ذا بين أيدي القراء يستروحون منه نفحات منعشة من روح ذلك الرجل العظيم، ويقرأونه فلا يزيدهم عرفانا بقدره، فحسبهم ما بنى وشاد وعلم وأفاد، وما ربى للأمة من رجال كالجبال، وما بث فيها من فضائل وآداب، وما أبقى لها من تراث علمي خالد، لا يرثه الأخ عن الأخ ولا الولد عن الوالد.

وشكرا للأخ الوفي أحمد بوشمال على هذا العمل الذي هو عنوان الوفاء.

الرجال أعمال

عبد الحميد بن باديس

إمام النهضة العلمية في الشمال الإفريقي (*)

باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر، وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحوفها المغيرة إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشيء مجلة« الشهاب » مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربّي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح، ومحيي دوارس العلم بدروسه الحية، ومفسّر كلام اللّه على الطريقة السلفية في مجالس إنتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقّن مباديها، علم البيان، وفارس المنابر، الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس، أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأوّل مؤسس لنوادي العلم والأدب وجمعيات التربية والتعليم، رحمه اللّه ورضي عنه.

وحسب إبن باديس من المجد التاريخي هذه الأعمال التي أجملناها في ترجمته، وإنّ كل واحد منها لأصل لفروع، وفصل من كتاب ، وإذا كان الرجال أعمالا فإن رجولة أخينا عبد الحميد تُقَوّمُ بهذه الأعمال.

وحسبه من المجد التاريخي أنه أحيا أمّةً تعاقبت عليها الأحداث والغير، وديناً لابسته المحدثات والبدع، ولسانا أكلته الرطانات الأجنبية، وتاريخا نطيّ عليه النسيان، ومجداً أضاعه ورثة السوء، وفضائل قتلتها رذائل الغرب.

---

*) نشرت في العدد 44 من جريدة« البصائر»، 26 جويلية سنة 1948.

وحسبه من المجد التاريخي أن تلامذته اليوم هم جنود النهضة العلمية، وهم ألسنتها الخاطبة، وأقلامها الكاتبة، وهم حاملو ألويتها، وأن آراءه في الإصلاح الديني والإجتماعي والسياسي هي الدستور القائم بين العلماء والمفكّرين والسياسيين، وهي المنارة التي يهتدي بها العاملون وأن بناءه في الوطنية الإسلامية هو البناء الذي لا يتداعى ولا ينهار.

وحسبه من المجد التاريخي أنّ إخوانه الذين حملوا معه معظم الأمانة في حياته، أضطلعوا بحملها كاملة بعد وفاته، في أيام أشدّ تجهّماً من أيامه، وفي هزاهز ماكان يتخيلها حتى في أحلامه، فما وهنوا ولا هانوا، ولا ضعفوا ولا إستكانوا.

وأنهم إستخلفوا على النهضة فكانوا نعم الخلف، تمّموا وعمّموا، وأجمعوا وصمّموا. وأنهم وفوا له ميتا كما وفوا له حياً، واعتَزّوا باسمه بعد مماته، كما كان يعتزّ بهم في حياته فقد كان رحمه اللّه، على جرأته وبديهته وبيانه وشجاعته، ربّما تدركه الفترة في الرأي في المواقف الحرجة فيلتفت فيرى إخوانه إلى يجنبه فيندفع كأنما مسّته كهرباء، وكأنه الأتّي، المنهمر، فلا يبقي ولا يذر.

• • •

ومن غرائب هذه العصابة التي كان إبن باديس شارة شرفها، وطغرى عزّها، أن الشيطان لم يجد منفذا يدخل منه إلى أخوّتهم فيفسدها، أو إلى علائقهم فيفصمها، أو إلى محبتهم بعضهم لبعض فينفث فيها الدخل ، فعاشوا ما عاشوا متآخين كأمتن مايكون التآخي، متحابين كأقوى ماتكون المحبة، ولقد كانوا مشتركين في أعمال عظيمة، معرّضين لعواقب وخيمة،ومن شأن مايكون كذلك أن تختلف فيه وجوه الرأي وتتشعّب مسالكه، فيكثر فيها اللجاج

المفضي إلى الضغينة، والإنتصار للرأي المفضي إلى الخلاف، خصوصا إذا إشتجرت الآراء في مزلقة الإستعمار التي يرصدها لنا، فوالذي روحي بيده ماكنا نجتمع في المواقف الخطيرة إلا كنفس واحدة، وماكنا نفترق، وإن إختلف الرأي– إلا كنفس واحدة، وإني لا أجد لفظا يؤدي هذه الحالة فينا، إلا لفظة «إخوان الصفاء» فلقد، واللّه كنا إخوان صفاء، وما زلنا إخوان صفاء، وسنبقى إخوان صفاء، حتى نجتمع عند اللّه راضين مرضيين إن شاء اللّه.

إن لهذه الحالة فينا علّة وثمرة: أما العلّة فهي أن إجتماعنا كان للّه ولنصر دين اللّه دين اللّه ولتأدية حق اللّه في عباده، دأبنا في ذلك التعاون على الخير، والاستباق إلى الخير، فلا مجال للمنافسة وحظ النفس، وأما الثمرة فهي هذا النجاح الباهر الذي نلقاه في كل أعمالنا للأمّة، في تطهير العقول، وفي تصحيح العقائد، وفي استجابة داعي القرآن، وفي تمكين سلطان السنّة،وفي صدق التوجه إلى العلم، وفي تشييد المدارس، وفي كثرة الإقبال عليها والبذل لها، وفي كل معالجة بيننا وبين الأمّة.

إن هذا من صنع اللّه لا مما تصوغه الأهواء الخبيثة، وما جمعته يد اللّه لا تفرّقه يد الشيطان.

• • •

مازلت آسَى على شيء كلما ذكرته وأجد له في نفسي حرارة ومضضا، وهو أن تستأثر الجزائر وحدها بتلك المجموعة الباديسية من فكر ثاقب، ورأي أصيل، وعلم غزير، ولسان مبين، وأن لا يكون لبقية الأقطار الإسلامية منها حظ، وكم كنت أتمنّى لو يقوم برحلة في أطراف العالم الإسلامي داعياً إلى اللّه، وإلى الاجتماع على كتاب اللّه، وكنت نازعته الحديث في هذا مرّات، وقلت له: إن من النقص أن تقضي طول عمرك مدرّسا لهذه الكتب وهذه

القواعد، في طائفة من الطلاّب، فإن زدت فمحاضرا في الجموع، وأن يبقى هذا العلم محصورا في الجزائر، وكان من حبه - رحمه اللّه- لتلامذته وشغفه بتربيتهم أنه يتولّى بنفسه دراسة الكتب العالية طوال السنة، إلا في الجولات المحدودة للوعظ والإرشاد، أو لاجتماعات الجمعيات، فكان يحيل الأمر إليَّ تنصلا، ويقول لي: أنت أعرف بالشرق، وألين عريكة مني (وهذه عبارته بحروفها). وكنا نتفق على الأصل ونسوّف ونسوّف إلى أن فرّق الموت بيننا.

هذه بعض أعمال الرجل العظيم الذي مات فورثت أسرته جثمانه فأقامت له مشهدا، وورثنا نحن أعماله فأقمنا له معهدا، وعسى اللّه أن يوفّق أسرته إلى وقف مكتبته على معهده ليعمّ النفع بها كما عمّ النفع بعلمه، وليحيا ذكره بهما معا، وليس بالكثير في حقّ من وقف حياته الغالية على الأمّة، أن توقف مكتبته الرخيصة على الأمّة.

مجالس التذكير (*)

هذا هو العنوان الذي كان يضعه الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس – رحمه الله– لما يكتبه بقلمه البليغ في تفسير بعض الآيات القرآنية الجامعة ويجعله فواتح لأعداد مجلة «الشهاب» وهي لمع لامعة في التفسير، يتمنى قارئها عند كل جملة منها لو أن الأستاذ أتمَّ تفسير القرآن كله كتابة، كما أتمّه درساً على تلك الطريقة وبذلك التحليل، إذ يرى أسلوباً مشرق الجوانب بنور العلم لا يفوته في الروعة إلا حسن فهم كاتبه للقرآن.

قرأ الناس تلك الفواتح في «الشهاب» واستفاد منها المستعدون ما يسَّرَ عليهم فهم القرآن في جملته إذ جعلوا من ذلك القليل مرشداً للكثير، فكأنهم لازموا الأستاذ خمساً وعشرين سنة. واستفاد منه المتأدبون مثالاً عاليًا من ذلك الأسلوب الذي يجمع الأدب والعلم، فيستهوي العالم والأديب. وقد كان الأستاذ –في قلة من علمائنا– ممن انطبعت ملكاتهم على ذلك الأسلوب الذي يعلم العلم والأدب. ومن تلك القلّة: الراغب ومسكويه وابن العربي وعياض والزمخشري وابن خلدون والشاطبي.

ولكن «الشهاب» مجلة، والمجلّة عندنا بنت عم الجريدة، تلفظ، ولا تحفظ، وتُتلى ثم تُلقى. وتضيع الأجزاء، ثم يضيع الكل. وقد نشأ بعد موت الأستاذ جيل نفور من تلك النظريات الجوفاء، وتلك الأساليب الرثة، وتلك الكتب التي تحملها، شديد الظمأ إلى التحقيق العلمي الذي يفضي به إلى

(*) «البصائر»، العدد 51، السنة الثانية من السلسلة الثانية، 27 سبتمبر 1948م.

الاستقلال في العلم. وفتنة هذا الزمان الاستقلال في كل شيء. وهذا الجيل لم يدرك دروس الأستاذ الحافلة، ولكنه أدرك مخايلها في مثل هذه الفصول من كتاباته، وأدرك آثارها في نفوس تلامذته، وأدرك أوصافها جائلة في أفواه الناس، فازداد شوقًا إليها، ولهفة عليها. فغير كثير على قادة هذا الجيل أن يهيّئوا له ما يروي ظمأه ويرضي هواه من الكتب الممتازة بالتحقيق العلمي، وأن لا يتركوه فريسة لتلك الكتب المعتلّة التي نرجو أن يكون جيلنا آخر ضحاياها.

ومن الشعور بهذه الحالة التي ألممنا بها إلمامًا، سمت همّة صديقنا الوفي الأديب أحمد بوشمال كاتب الأستاذ المفسّر وأمين سرّه، فجرّد من مجلة «الشهاب» قطعة صالحة من مجالس التذكير، وطبعها في مطبعة «الشهاب» طبعًا أنيق الحرف بديع الورق، فجاء تحفة فنية صغيرة الحجم، ولكنها عالية القدر وفي نيّته أن يصدر البقية في جزء آخر. وقد طلب من كاتب هذه السطور أن يقدّمه إلى القرّاء بكلمة فكتبها في جلسة سمر كثر ضجيجها، وتمتّع من الجد إلى الهزل حجيجها، فجاءت كما يهوى العاتب، لم تف بحق المكتوب ولا بحق الكاتب. وعسى أن لا تكون كلمتي هذه دعاية سيّئة للكتاب، فهو غني عن المقدّمة بما فيه من علم وعرفان. ونصيحتي الخالصة إلى كل من قرأه متفرّقًا أن يقرأه مجتمعًا وإلى كل من لم يقرأه أن يقرأه، وإلى كل ناشئ من هذا الجيل أن يجعله لدراسة التفسير مفتاحًا.

ذكرى عبد الحميد بن باديس (*)

يموت العظماء فلا يندثر منهم إلا العنصر الترابيّ الذي يرجع إلى أصله، وتبقى معانيهم الحية في الأرض،قوّة تحرّك، ورابطة تجمع، ونوراً يهدي، وعطراً ينعش، وهذا هو معنى العظمة، وهذا هو معنى كون العظمة خلوداً؛ فإن كل ما يخلف العظماء من ميراث، هو أعمال يحتذيها من بعدهم، وأفكار يهتدون بها في الحياة، وآثار مشهودة ينتفعون بها، وأمجاد يعتزّون بها ويفخرون؛ والاعتزازُ والفخرُ من الأغذية الروحية الحافظة لبقاء الجماعات؛ وهذه المجموعة من ميراث العظماء هي التي تسلسل بها الحياة متشابهة الأطوار قروناً؛ ولولاها لانفصمت حلقاتها، فكان لكل فرد قانونٌ خاصّ، وحياة خاصّة، مقطوعة الصلة بمن قبلها ومن بعدها، فيفسد النظام ويختلّ الوزن وينعدم التشاكل، فينعدم التعاون.

والعظمة الحقة -عظمة الخير والجمال والمنفعة- مستمدّة عناصرها الأولى من ينابيع النبوّة، التي هي مثال لتصفية النفس من كثافة المادة وكدورة الأثرة، فهي متصلة بالله، شعر البشر بذلك أو لم يشعروا، واعترفوا بالألوهية أو جحدوا؛ فكل عظيم أفاد وهدى ونفع وأسعد، فهو سائر على قدم النبوة، أو هو حواريّ لمست روحه شرارة من قبس النبوّة، ومن وزن العظمة بهذا الميزان، ذاد عن حياضها أبالسة الشر من عظماء القوة والطغيان، الذين ظلموا العظمة فاقترضوها، ثم فرضوها، وعظماء العصبيات الجنسية المحدودة الذين ضاقوا عن العظمة، فضاقت بهم؛ فكل هؤلاء يشيل بهم ميزان الخير الدقيق، وإن رجح بهم ميزان (الخبز والدقيق).

(*) نُشرت في العدد 151 من جريدة «البصائر»، 16 أفريل سنة 1951.

ومن الغرائب التي ينطوي عليها الاجتماع البشريّ أن أفراده وجماعاته يشعرون بالقصور عن مراتب العظمة، ويشعرون أنهم مفتقرون إليها، لا تستقيم لهم حياة بدونها، فإذا لم يوجد فيهم عظيم، ولم تسقه إليهم المقادير، ساقته الأساطير، فتصوّر لهم أخيلتهم عظيمًا، يُفيضون عليه من التمجيد ما يصوّره مثلاً أعلى، ويصيره مرجعًا أسمى، ثم يعمدون إلى معاني العظمة الكاملة المتفرّقة فيهم، فيخلعونها عليه إعارة، ليأخذوها عنه استعارة، بالقدوة والاتصاف في الأعمال، أو بالتمثّل والاستشهاد في الأقوال؛ ومثل ما فعلوا في العظماء فعلوا في الحكماء مرسلي الحكم، في الكلم؛ واعتبر ذلك بلقمان في الأوّلين، وجحا في الآخرين، فإننا نجد هذا الاسم دائرًا على الألسنة عند طوائف كثيرة من الأمم، يردّون الحكمَ والأمثالَ إليه؛ ومثله -على نسبة ما- البهلول، والفياش، والمجذوب، عند بعض العرب، و«ماريوس» وصاحبه عند الفرنسيين وغيرهم عند غيرهم؛ وكل ذلك يدلّ على أن أفراد النوع مولعون بالعظمة والشهرة، مفتونون بالحكمة والمثل، حتى أنّ أحدهم يرسل المثل، أو يصوغ الحكمة ثم ينسبها إلى غيره ممن ملأ أذهان الناس، وشغل حيّزًا واسعًا من شعورهم، ليكون ذلك أسيَر للمثل، وأبقى للحكمة؛ وإن هذا النوع من «القرابين» الروحية للمعاني المتألهة.

والعظمة الحقيقية كالشعر المطبوع، تستند على الطبع الموهوب، والاستعداد الفطري ثم تأتي الأدوات في الدرجة الثانية، مساوقة للطبع، متناسقة مع الاستعداد، حتى تتمكّن وتثبت، وتقابلها عظمة صناعية زائفة، تحشد لها الأسباب، وتجلب المعاني، وتستعار لها الأدوات، أو تشترى من السوق، فتأتي متداعية متهافتة، لا تستقرّ ولا تثبت، ثم تموت قبل صاحبها أو تموت بموته.

وكما أن استحكام القوافي في الشعر لا يأتي من معرفة أحكام القوافي في العروض، لا تأتي العظمة بالتكلّف والصنعة، ولا بالاستعارة والتقليد.

• • •

وعبد الحميد بن باديس عظيم بأكمل ما تعطيه هذه الكلمة من معنى؛ فهو عظيم في علمه، عظيم في أعماله، عظيم في بيانه وقوّة حجّته، عظيم في تربيته وتثقيفه لجيل كامل، عظيم في مواقفه من المألوف الذي صيره السكوت دينًا، ومن المخوف الذي صيره الخضوع إلهًا، عظيم في بنائه وهدمه، عظيم في حربه وفي سلمه، عظيم في اعتزازه بإخوانه، ووفائه لهم، وعرفانه لأقدارهم. وإذا كان من خوارق العادات في العظماء أنهم يبنون من الضعف قوّة، ويخرجون من العدم وجوداً، وينشئون من الموت حياة، فكل ذلك فعل عبد الحميد ابن باديس من الأمّة الجزائرية.

• • •

وهذه الذكريات التي يقيمها الناس لعظمائهم، والمذكرات التي ينصبونها لبقاء أسمائهم محفوظةً، وأعمالهم ملحوظة، هي تجديد للعهد بهم، وتمديد للاتصال الروحاني الذي يربط الفروع بالأصل، ويحثّ على التأسّي والاستمرار؛ ودعوة متجدّدة إلى مبادئهم، وردعٌ للمتطاولين الذين يهتبلون الغفلة وفراغ الميدان فيتعاظمون؛ فهي -في بعض غاياتها- حراسة للعظمة الحقيقية من العظمة الصناعية، وكأنها تصحيح لحدودها، وتفقّد لموازينها، ومراقبة دائمة للتزوير أن يلمّ بها، فيطغى عليها، فيفسد على الناس أمرها وآثارها، وهذه النقطة وحدها تعدّ من محسنات التكرار لأقوال العظماء، والترديد لفضائلهم في كل سنة.

• • •

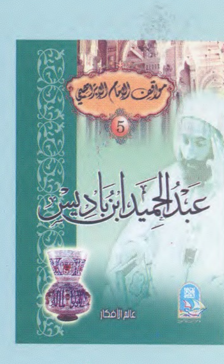
وذكرى عبد الحميد بن باديس هي ذكرى أعماله وآثاره في الأمّة؛ فهذه اليقظة المتفشية فيها، وهذه الحركات السارية كالنار في الضرام، وهذه النظرات الجديدة في الحياة، وهذه الاتجاهات المسدّدة فيها، وهذا التجدّد في الأذهان والعقول، وهذا التصلّب في المقاومة، وهذه الأقلام الجارية بالبيان العربي، وهذه الألسنة المحلولة العقد في الخطابة، كلها مذكّرات بعبد الحميد، وفي كل منها أثر من يده، وأثارة من عقله، ونفخة من روحه، دعا إليها، وجهر بها، وعمل لها، وغرسها في نفوس تلامذته بالدرس، وفي عقول جلسائه بالمذاكرات؛ وفي عامة الأمّة بالمحاضرات.

إن هذه النهضة التي لم تزل في تباشيرها، ستمدّ مدّها حتى تصبح تاريخًا حافلاً، وستنشئ بنفسها مؤرّخها المنصف؛ ويومئذ يضطر ذلك المؤرّخ إلى إرجاع العناصر إلى أصولها، فيجد عبد الحميد بن باديس «واضع الأس والحجر».

• • •

في مثل هذا اليوم من شهر أفريل من كل سنة، تتبارى الأمّة الجزائرية في إقامة الذكرى لعبد الحميد بن باديس، إحياءً لذكره، واعترافًا بفضله، وتتولّى مدارس جمعية العلماء وشُعبها تنظيمها والإشراف عليها، وتعميرها بالخطابة والشعر، وتخليدها بالكتابة؛ وتشترك فيها الأحزاب السياسية، ومنظّمات الطلبة في خارج الجزائر، وكل ذلك بعض حقوق إمام النهضة على رجال النهضة؛ ولكن أكبر حقوقه علينا في التخليد، وأعوَدها علينا بالنافع المفيد، هو البناء والتشييد. فليس بنافعنا ولا بنافعه أن نبكي في كل سنة ونعدّد، ولا أن نكرّر فضائله ونردّد، وإنما الذي يعود عليه بأجر من دعا إلى خير، وسنّ سنّةً حسنة، ويعود علينا بفائدة من غرس غرسًا فسقاه، وعمل صالحًا فأبقاه، هو تشييد المعاهد العلمية وتعميرها، وتعهّدها بالعناية، وإمدادها بأسباب البقاء؛ وقد كان المعهد الباديسي بدءَ العمل، فلا يكوننّ الختام.

الفهـــرس



هذا الكتاب

باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر، وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحوفها المغيرة إلى الغايات العليا، وإماما الحركة السلفية، ومنشئ مجلة " الشهاب" مرآة الإصلاح وسيف المصلحين ، ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح ودوارس العلم بدروسه الحية، ومفسر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن وغارس بذور الوطنية الصحيحة ، وملقن مباديها.

وحسبه من المجد التاريخي أنه أحيا أمة تعاقبت عليها الأحداث والغير، ودينا لابسته المحدثات والبدع، ولسانا اكلته الرطانات الأجنبية وتاريخا غطى عليه النسيان، ومجدا أضاعه ورثة السوء وفضائل قتلتها رذائل الغرب وح
المجد التاريخي ان تلامذته اليوم ه
النهضة العلمية، وهم ألسنتها
وأقلامها الكاتبة، وهم حاملو الويتر




9 789961 712405